الباب السابع

هذه المسائل... والروح

الروح القدس – المعجزات والكرامات – الإسراء والمعراج – حقيقة النبوة – الرؤيا رياضة المتصوفة – بهاليل المريدين – السحر – الكهانة – العرافون – المنجمون – حساب الحروف وعلم اليازرجة – الحسد – التنويم – العلاج النفسى بالإيحاء والتنويم .

المراجـــع

– مقدمة ابن خلدون .
– صور من حياة الرسول (أمين دويدار)
– عالم الروح (مجلة الروح – حسن عبد الوهاب)
– النفس (دكتور على كمال) ط ١ بيروت ١٩٦٧ .
– منهج التربية الإسلامية – محمد قطب

obeikandl.com

obeikandl.com

الروح القدس (الوحى)

اعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة ، وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق وأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التى لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياههم قال ، ﷺ ، ألا وإنى لا أعلم إلا ما علمنى الله . واعلم أن خبرهم فى ذلك من خاصيته وضرورته الصدق لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة ، وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم فى حال الوحى غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط ، كأنها غشى أو إغماء فى رأى العين وليست منهما فى شىء ، وإنما هى فى الحقيقة استغراق فى لقاء الملك الروحانى بإدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية إما بسماع دوى من الكلام فيتفهمه أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما حمله من عند الله ، ثم تتخلى تلك الحال وقد وعى ما ألقى إليه قال ، ﷺ ، وقد سئل عن الوحى : أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول ، ويدركنى فى أثناء ذلك من الشدة والغط ما لا يعبّر عنه .. ففى الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة . وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . وقال تعالى (إنا سنلقى عليك قولاً

ثقيلاً) ولأجل هذه الحالة فى تنزل الوحى كان المشركون يرمون النبى بالجنون ويقولون له رئى أو تابع من الجن ، وإنما لبس عليهم بما يشاهدون من ظاهر تلك الأحوال : (ومن يضلل الله فما له من هاد) . ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحى خلق الخير والزكاة ومجانبة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته ، وفى الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلها فى إزاره فانكشف فسقط مغشيًّا عليه حتى استتر بإزاره ، ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم ، بل نزهه الله عن ذلك كله حتى أنه بجبلته يتنزه عن المطعومات المستكرهة فقد كان ، ﷺ ، لا يقرب البصل والثوم فقيل له فى ذلك فقال إنى أناجى من لا تناجون .

المعجزات والكرامات

ومن علاماتهم أيضاً وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم ، وهى أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة ، وليست من جنس مقدور العباد وإنما تقع فى غير محل قدرتهم وللناس فى كيفية وقوعها ودلالتها على تصديق الأنبياء خلاف ، فالمتكلمون بناء على القول بالفاعل المختار قائلون بأنها واقعة بقدرة الله لا بفعل النبي وإن كانت أفعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم ، إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ، وليس للنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدى بها بإذن الله ، وهو أن يستدل بها النبي ، ﷺ ، قبل وقوعها على صدقه فى مدعاه ، فإذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية . فالمعجزة الدالة بمجموع الخارج والتحدى ، ولذلك كان التحدى جزءاً منها (وعبارة المتكلمين) صفة نفسها ، وهو أحد ، لأنه معنى الذاتى عندهم والتحدى هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر . إذ لا حاجة فيهما إلى التصديق ، فلا وجود للتحدى إلا أن وجد اتفاقاً وإن وقع التحدى فى الكرامة عند من يجيزها ، وكانت لها دلالة فإنما هى على الولاية وهى غير النبوة ، ومن هنا منع الأستاذ أبو إسحاق وغيره وقوع الخوارق كرامة فراراً من الالتباس بالنبوة عند التحدى بالولاية ، وقد أريناك المغايرة بينهما وأنه يتحدى بغير ما يتحدى به النبى ، فلا لبس على أن النقل عن الأستاذ فى ذلك ليس صريحاً ، وربما حمل على إنكار أن تقع خوارق الأنبياء لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارق ، وأما المعتزلة فالمانع من وقوع الكرامة عندهم أن

الخوارق ليست من أفعال العباد ، وأفعالهم معتادة فلا فرق ، وأما وقوعها على يد الكاذب تلبيسا فهو محال أما عند الأشعرية فلأن صفة نفس المعجزة التصديق والهداية ، فلو وقعت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة والتصديق كذباً ، واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه المحال لا يكون ممكناً . وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح فلا يقع من الله . وأمّا الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي ، ولو كان فى غير محل القدرة بناء على مذهبهم فى الإيجاب الذاتى ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الأسباب ، والشروط الحادثة مستندة أخيراً إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار ، وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية ، منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له فى التكوين ، والنبى عندهم مجبول على التصرف فى الأكوان مهما توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك ، والخارق عندهم يقع للنبى كان للتحدى أو لم يكن ، وهو شاهد بصدقه من حيث دلالته على تصرف النبى فى الأكوان الذى هو من خواص النفس النبوية ، لا بأنه يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية ، كما هى عند المتكلمين ولا يكون التحدى جزءاً من المعجزة ، ولم يصح فارقاً عن السحر والكرامة ، وفارقها عندهم عن السحر أن النبى مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر. فلا يلم الشر بخوارقه والساحر على الصدق فأفعاله كلها شر ، وفى مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبى مخصوصة كالصعود إلى السماء ، والنفوذ فى الأجسام الكثيفة وإحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران فى الهواء وخوارق الولى دون ذلك كتكثير القليل ، والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء ويأتى النبى بجميع خوارقه ، ولا يقدر

هو على مثل خوارق الأنبياء وقد قرر ذلك المتصوفة فيما كتبوه فى طريقتهم ولقنوه عمن أخبرهم وإذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم ، المنزل على نبينا محمد ﷺ . فإن الخوارق فى الغالب تقع مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو بنفسه الوحى المدعى وهو الخارق المعجزة فشاهده فى عينه ، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحى فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله ﷺ ما من نبى من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر. وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى إلى فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ، يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة فى الوضوح وقوة الدلالة ، وهو كونها نفس الوحى كان الصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثر المصدق والمؤمن وهو التابع والأمة .

الإسراء والمعراج [٢]

لعل الناس لم يختلفوا فى شىء قط كما اختلفوا فى شأن الإسراء والمعراج ، ولم يتجادلوا فى شىء قط كما تجادلوا فى أمرهما .. فمن الناس من صدق بهما جميعاً ، ومن الناس من كذب بهما جميعاً ، ومنهم من صدق بالإسراء وكذب بالمعراج ، ومنهم من قال بأن الإسراء كان بالروح والجسد معاً ، ومنهم من قال بأنه كان بالروح دون الجسد ، ومنهم من قال بأنه كان فى اليقظة ومنهم من قال بأنه كان فى المنام .

---

(٢) صور من حياة الرسول – أمين دويدار – دار المعارف – الطبعة الرابعة .

وهكذا لم يزل الناس منذ حدث هذا الحادث العظيم يختلفون فيه ، ولا يزال كل فريق يحاول أن يؤيد رأيه بكل ما يبدو له من الحجج ومايرجح عنده من البراهين . وصدق الله العظيم إذ يقول فى شأن هذا الحادث : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) [٣] .

ولعل السبب فى هذا الاختلاف أن الناس يأبون إلا أن يحكموا فيه العقل ولا يرضون بغيره حكماً ، فهل العقل يصلح أن يكون حكماً فى هذا الأمر الخطير ؟ .. وقبل أن نقرر ما إذا كان العقل يصلح أولا يصلح أن يكون حكماً فى مثل هذا الأمر ، ينبغى لنا أن نعرف ما هو العقل ، وما وظيفته ، وما مقدرته ، وما حدوده ، ومن أين يستمد العقل علمه ومعارفه ؟ .

العقل : هو قوة الفهم فى الإنسان ، هو الذى به يستطيع أن يميز ويقدر ، ويقيس ويوازن ، ويستنبط النتائج من مقدماتها ، ويكون الكليات من جزئياتها ويصدر الأحكام على كل ما تمده به الحواس ، فيحكم مثلاً بأن هذا أحمر وهذا أبيض ، وهذا حلو وهذا مرّ ، وهذا ناعم وهذا خشن ، وهذا طيّب وهذا خبيث ، وهذا بعيد وهذا قريب ، وهذا صعب وهذا سهل ، وهذا ممكن وهذا مستحيل .. وهو فى كل ما يصدر من هذه الأحكام متأثر بما تمده به الحواس ، فما من حكم يستطيع أن يصدره العقل إلا وللحواس فيه أثر ، إما مباشر وإما غير مباشر . والحواس إنما تستمد معلوماتها من عالم الحس الذى يحيط بها ، ولا تستطيع بحال أن تتجاوز هذا العالم إلى ما وراءه لتستمد منه شيئاً .. فالأذن لا تستطيع أن تسمع إلا ما يصك مسمعها من الأصوات ، والعين لا تستطيع أن ترى إلا ما يقابلها من المناظر ، والأنف لا يستطيع أن يشم إلا ما يمر به من

---

(٣) مع بعض تصرف .

الروائح ، واللسان لا يستطيع أن يذوق إلا ما يلمسه من الطعوم ، واليد لا تستطيع أن تمسك إلا ما يقع فى قبضتها من الأجسام . وهكذا كل حاسة من الحواس لا تستطيع أن تدرك إلا ما يقع فى دائرة حسها من الأشياء ، ثم هى ترسل بهذا الإدراك إلى العقل ، فيفسره العقل بأنه صوت أو منظر أو رائحة أو جسم ، ويحكم عليه بأنه لطيف أو عنيف . جميل أو دميم ، طيب أو خبيث ، كبير أو صغير ، فكل ما يصدره العقل من أحكام إنما هو قائم على ما تدركه الحواس ، وكل ما تدركه الحواس إنما هو مستمد من عالم الحس الذى تعيش فيه ، ولن تستطيع الحواس بأى حال أن تستمد شيئاً من غير هذا العالم . فالمسموع والمنظور والمشموم والمذوق والملموس ، لابد أن تكون كلها واقعة تحت إدراك الحواس ، حتى تستطيع أن تدركها وأن تؤدى بإدراكها هذا إلى العقل الذى يفسره ويصدر حكمه عليه . وتفسير الشىء والحكم عليه هو (الفهم) .

والفهم : هو وظيفة العقل ، وهو فرق ما بين الإنسان والحيوان الأعجم .

نستطيع إذن أن نخرج من هذا البيان بنتيجة : هى أن العقل لا يمكن أن يفهم إلا ما تمده به الحواس ، لأن الحواس هى روافده التى تمده بالمعلومات عن كل ما يقع تحت حسها ، وما دامت هذه الروافد عاجزة عن أن تستمد مدركاتها من عالم آخر غير عالم الحس ، فلا يمكن أن توصل إلى العقل علماً من غير عالمها .. فهل الكون كله هو عالم الحس وحده ؟ هل الكون كله هو هذه المحسوسات التى نراها بأعيننا ، ونسمعها بآذاننا ، ونذوقها بألسنتنا ونشمها بأنوفنا ، ونلمسها بأيدينا ؟ وبعبارة أخرى : هل نحن فى الواقع نرى بأعيننا كل شىء فى هذا الكون ، ونسمع بآذاننا كل صوت ، ونشم بأنوفنا كل ريح ، ونلمس بأيدينا كل جسم ؟ لا شك أن هناك أشياء كثيرة لا تدركها حواسنا هذه ،

لأنها إما بعيدة عن منالها ، وإما خارجة عن دائرة إدراكها ، وهى فى كلتا الحالتين تعتبر (غيباً) لا تستطيع حواسنا أن تصل إلى إدراكه .

فهل نستطيع إذن أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير موجود ؟ لاشك أننا لا نستطيع أن ندعى ذلك ؟ ولا نستطيع كذلك أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير معقول أن يكون موجوداً ، لأن العقل فى هذا المجال لا يستطيع أن يحكم ، إذ الحواس التى يستمد منها معلوماته ، والتى يعتمد على إدراكها لذلك الغيب ، لم تصل بعد إلى ذلك الغيب ، أو هى بطبيعتها لا تستطيع الوصول إليه . فوسائل العلم إذن بهذا الغيب ستظل مفقودة حتى تصل الحواس إلى إدراكه ، فإذا استطاعت الحواس أن تصل إليه فأدركته ، استطاع العقل أن يفهمه ويصدر حكمه عليه ، أما إذا ظلت الحواس عاجزة عن الوصول إليه ، فإن العقل كذلك يظل جاهلاً به ، فلا يستطيع أن يفسره ولا أن يحكم عليه ، فإذا تصدى للحكم كان حكمه خطأ ، لأنه حكم قائم على غير علم .

ولنضرب لذلك مثلاً من الواقع .. لو أن قائلاً قال للناس قبل مائة عام مثلاً : إن هناك فى الكون سرًّا عجيباً ، يكون فى بعض الأجسام نوراً ، وفى بعضها قوة ، وفى بعضها حرارة ، وفى بعضها برودة ، وفى بعضها صوتاً ، وفى بعضها صورة ، وأحياناً يكون دواء ناجعاً ، وأحياناً يكون موتاً صاعقاً .. فهل كانوا يصدقونه فيما يقول ؟ وهل كانت عقولهم تؤمن بوجود هذا السر ؟ .. فلما أن كشف العلم سر « الكهربا » ، ولمس الناس آثارها ، وأدركتها حواسهم على ضوء التجربة والواقع ، صدقوا وآمنت عقولهم بوجود هذا السر. فهل كانت الكهربا معدومة ثم وجدت حين اكتشفها العلم ؟ .. لا ، بل كانت موجودة فى الكون منذ خلق الله الكون ، ولكن العقل لم يكن يعرفها لأن الحواس لم تكن

تدرك آثارها ، فلمّا أدركتها الحواس عرفها العقل ، وكذلك الشأن فى كل ما كشف العلم الحديث من أسرار هذا الكون وعجائبه . وقديماً عجب بعض الناس من أن عمر بن الخطاب نادى وهو على المنبر فى المدينة : « يا سارية ، الجبل ، الجبل » يحذر قائد جيشه بالشام من كمين أعده له العدو وراء الجبل ، فسمع سارية النداء فأخذ حذره من ذلك الكمين ، ولكننا أصبحنا الآن بحيث لا نعجب من مثل هذا . بعد أن كشف العلم لنا ما كشف من أسرار الصوت فى الراديو . إذن فهناك فى الكون أسرار لم تزل خافية على العقل ، ولا يستطيع العقل أن يحكم بأنها مستحيلة أو ممكنة ، لأنها لم تصل إلى علمه بعد ، أو لأنه غير قادر على أن يصل إلى علمها بوسائله . وأن فيما يكشف العلم لنا من هذه الأسرار لدليلا على أن هنالك أسراراً لم تكشف لنا بعد ، ولقد يكون ما نجهله من هذه الأسرار أكثر بكثير مما نعلمه ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

ويعجبنى فى هذا المجال تصوير لأحد العلماء الأجانب شبه فيه العلم أو العقل فيما يكتشفه من أسرار هذا الكون – برجل جلس على شاطئ البحر ، فجعل ينظر إلى البحر مبهوراً بعظمته ، متطلعاً إلى ما فيه من أسرار ، فبينما هو كذلك إذ قذف البحر له سمكة ، فصاح مسروراً : لا شك أن فى هذا البحر سمكاً . ثم قذف البحر له مرجانة ، فصاح مبتهجاً : ولا شك أن فيه مرجاناً . ثم قذف البحر له لؤلؤة ، فعرف أن فيه لؤلؤاً كذلك ... وهكذا ، كلما رمى البحر له شيئاً ظن أنه كشف سرًّا من أسرار هذا البحر . لكن هل يستطيع أن يحيط بكل ما فى البحر من أسرار ؟ لا شك أنه لا يستطيع ، ولو قضى عمره على شاطئ البحر .. وهو تشبيه صادق وتصوير بليغ لموقف العقل من أسرار هذا الكون .

نستطيع أن نصل من هذا إلى نتيجة أخرى ، هى أن العقل لم يحط بكل ما فى الكون من أسرار ، وأنه ما دام لا يستطيع أن يحيط إلا بما تمده به الحواس ، فإن حكمه على ما لا سبيل للحواس إليه ، إنما هو رجم بالغيب وخبط فى الظلام ، وما دام الأمر كذلك فكل ما لا تدركه الحواس لا يمكن أن يحكم فيه العقل . والحواس بطبيعتها مادية لا تدرك إلا ما تحسه من عالم المادة ، أما ما وراء عالم المادة — وهو عالم الغيب — فإنها لا يمكن أن تدرك منه شيئاً فعلم العقل بما وراء المادة عن طريق الحواس أمر غير ممكن ، وحكمه عليه لا يمكن أن يكون صادقاً أبداً . ومن أجل هذا كان العقل غير صالح لأن يحكم فى مسألة (الإسراء والمعراج) لأنها من عالم الغيب الذى لا تدركه الحواس .

من أى طريق — إذن — يأتى للعقل علم ما وراء المادة ؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا من طريق (السمع) .. من طريق السمع وحده لا من طريق غيره ، وذلك بأن يتلقى الخبر عنه من صادق أمين ، له قدرة على الاتصال بما وراء المادة ، أى (بعالم الغيب) . وهذا لا يتأتى إلا للأنبياء والرسل ، والأنبياء والرسل صادقون فيما يبلغون من هذه الأخبار ، لأنهم يتلقونها بطريق الوحى الإلهى عن الله وهو أصدق القائلين . فليس هنا مجال للشك فى صدق الحقيقة التى يخبر بها الرسل والأنبياء عن عالم الغيب ، وليس للعقل أن يقول فى هذا المجال شيئاً ، لأنه خارج عن نطاق إدراكه .

وربما ظن بعض الناس أن العلم بما وصل إليه من الوسائل الحديثة يستطيع أو يمكن الاستعانة به أو الاعتماد عليه فى علم ما وراء المادة . ولكن العلم الحديث بكل وسائله لا يستطيع ذلك ، لأن وسائله كلها مادية قائمة على التجربة والملاحظة ، وهما لا تقومان إلا على ما تدركه الحواس ، والحواس بطبيعتها لا تدرك ما وراء المادة .

فالسمع – إذن – هو وحده الطريق الذى يستمد العقل منه معلوماته عما وراء المادة ، أو عن عالم الغيب وما فيه من الجنة والنار ، والملائكة والجن ، والحشر والحساب ، وما إلى ذلك من (السمعيات) التى لا يمكن أن تأتينا أخبارها إلا من طريق السمع وحده .

(والإسراء والمعراج) من هذه السمعيات .. فليس للعقل مجال فى الحكم عليهما بالصدق أو بالكذب ، وبالجواز أو بالاستحالة . لأنهما غير داخلين فى نطاق علمه ، فإذا تصدى للحكم عليهما فقد تصدى للحكم فيما ليس له به علم .

فليس للعقل – إذن – إلا التصديق بما ورد عنهما على لسان الصادق الأمين ، وهو رسول الله ، ﷺ . وليس له أن يسأل عن إمكان ذلك أو كيفيته ، لأن ذلك شىء ليس فى طاقة العقل أن يفهمه ، لأنه من عالم الغيب الذى لا يدخل فى دائرة إدراكه . أما الذى يستطيع العقل أن يسأل عنه فهو الحكمة فى ذلك الإسراء والمعراج .

أما حكمة الإسراء فقد أجملها الله سبحانه فى قوله : (لنريه من آياتنا) ، وذلك حيث يقول عز وجل فى سورة الإسراء : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) . وأما حكمة المعراج فقد أجملها الله سبحانه فى قوله : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ، وذلك حيث يقول عز وجل من سورة النجم : (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى) .. وذلك فى رأى من يقول بأن هذه الآيات نزلت فى شأن المعراج .

فالغرض الذى كان من أجله الإسراء وكان من أجله المعراج ، هو أن يرى

الله رسوله ما شاء من آيات قدرته ، وعجائب صنعه ، وعظيم ملكه ، ليطمئن قلبه ، وتستنير بصيرته ، ويزداد يقينه .

ويقول العلماء : إن المعرفة درجات ثلاث علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين . فعلم اليقين هو المعرفة التى تقوم على الخبر الصادق ، وعين اليقين هو المعرفة التى تقوم على المشاهدة ، وحق اليقين هو المعرفة التى تقوم على التجربة والممارسة .. فأنت إذا سمعت عن بلد من البلاد من أمين صادق لا تشك فى خبره ، فذلك علم اليقين ، فإذا أنت رأيت هذا البلد بعينيك ، فذلك عين اليقين ، فإذا أنت عشت فى هذا البلد فعاشرت أهله وعرفت أموره ودرست أحواله ، فذلك حق اليقين. كذلك إذا سمعت عن شخص ، ثم رأيته ، ثم خالطته وجربته ، فقد تدرجت فى المعرفة به درجة بعد درجة ، من علم اليقين ، إلى عين اليقين إلى حق اليقين ، وهى الدرجة التى ليس بعدها درجة فى العلم ولا فى المعرفة .

والرسل والأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم قد تلقوا عن الله تعالى السمعيات ، أو أنباء عالم الغيب ، بإيمان وتصديق ويقين لا يقبل الشك ، ولكن منهم من استشرف إلى الترقى فى المعرفة من درجة (علم اليقين) إلى درجة (عين اليقين) ، فقد حكى الله عن نبيه عزير أنه (مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه[٤] وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها[٥] ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء

---

(٤) لم تغيره السنين .

(٥) نعيد تركيبها ونضعها فى مواضعها .

قدير) * .. وحكى عن خليله إبراهيم أنه قال : (رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك [٦] ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم) .. وحكى عن رسوله موسى أنه قال : (رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًّا وخر موسى صعقاً [٧] فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) ** .

ومحمد ، ﷺ ، سيد الأنبياء وخاتم الرسل ، وأكرم خلق الله على الله ، فكان من كرامته – سبحانه – أن خصه بتلك الرحلة الملكوتية العجيبة ، ليريه من آياته ما استشرف غيره إلى رؤية بعضه ، ليرقى به من منزلة (علم اليقين) إلى منزلة (عين اليقين) . فكان ﷺ هو الرسول الوحيد الذى يخبر أمته بخبر السمعيات وما وراء المادة عن عيان ومشاهدة ، لا عن مجرد الخبر السماوى فحسب . ولذا كان عليه الصلاة والسلام واضح البيان فى تعليمه ، يكثر من التشبيهات وضرب الأمثال وأنواع الاستعارة ، ليقدم للناس تلك الحقائق الكونية الخفية ، مصورة بصورة ما يشبهها من الأمور الواقعية المعهودة . وتلك منزلة من سمع ورأى ، لا من سمع فقط .

« ولقد كان الوحى ينزل عليه بخبر تلك الحقائق والآيات الغيبية ، فيخبر مثلا عن الذين يأكلون الربا بأنهم (لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه

---

* سورة البقرة : ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٦) أى اجمعهن فى يديك لتستوثق من حياتهن .

(٧) سقط صريعاً من هول ما رأى .

** سورة الأعراف : ١٤٣ .

الشيطان من المس) ، وعن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً بأنهم (إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) ، ويخبر عن آل فرعون فى حياة البرزخ بقوله : (النار يعرضون عليها غدوًّا وعشيًّا) . وهكذا وهكذا مما نزل به الوحى على قلبه ، ﷺ . وتلك معارف جليلة كان يستشرف لرؤيتها أكابر الأنبياء والرسل ، ويتشوفون إلى درجة فى المعرفة أعلى من الدرجة التى هم عليها . ولا شك أن رسول الله ، ﷺ ، كان يتشرف كما يتشرفون ، ولكنه لم يطلب من الله كما طلب غيره ، تأدباً معه ، سبحانه ، وحياء منه ، فأكرمه الله ، سبحانه ، بتلك الرحلة ، ليريه من آياته ما يشاء ، ويطلعه من عجائب كونه على ما يريد ، وليفضى إليه بما يشاء من أسرار جل شأنه * » .

ولقد يحلو لبعض المعاصرين منا أن يشبه ذلك بما يحدث الآن فى الدول الكبرى ، حيث تستدعى الدولة سفيرها فتفضى إليه بما تشاء من أسرارها الخطيرة ، وترسم له الخطة كما ينبغى أن تكون . وهو منزع شعرى جميل ، ولكنه تشبيه مع الفارق العظيم ، « ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » .

وهنا يستشكل الأمر على بعض الناس فيقولون : وهل لله ، عز وجل مكان يعرج إليه فيه رسوله ؟ .. فقد نستطيع أن نسلم بأن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ممكن ، لأننا الآن نرى الطيارات تقطع هذه الرحلة ذهاباً وإياباً فى بضع ساعات ، وقد نستطيع أن نسلم بأن رسول الله عرج به إلى السماء ، لما نراه الآن من محاولات العلم الحديث فى الوصول إلى الكواكب ، وقد نستطيع كذلك أن نسلم بأن ما رآه رسول الله من حياة البرزخ [٨] . ومن صور الأعمال ،

---

* منبر الإسلام عدد رجب ١٣٧٤ : مقال للأستاذ البهى الخولى مع بعض تصرف .

(٨) البرزخ .. هو فترة ما بين الموت والنشور ، وهو الفترة التى يقضيها الموتى فى قبورهم حتى يبعثوا يوم القيامة .

ومن عجائب الكون حق ، لأن خبره صادق لا يقبل الشك ولكن كيف نستطيع أن نسلم بمثوله فى حضرة ربه ذى الجلال ، عند سدرة المنتهى ؟ أليس معنى هذا أن الله ، جل جلاله ، مكاناً ، وأنه – سبحانه – فى السماء السابعة أو فيما وراءها ؟

والأمر فى حقيقته غير مشكل ؟ ولكننا نحن الذين أشكلناه على أنفسنا ، لأننا أخضعناه لمدركاتنا الحسية ، وحكمنا فيه العقل الذى ليس من شأنه أن يحكم فى مثل هذا الأمر . فالله ، سبحانه وتعالى ليس بعيداً عن رسوله حتى يقطع للقائه هذه الأبعاد الشاسعة فى السموات العلى ، بل هو معه حيثما كان وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، بل هو قريب من عباده جميعاً ، يسمعهم إذا دعوا ، ويجيبهم إذا سألوا ، ويكون معهم أينما كانوا : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) * والذى يقول لرسوله : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) ** وقد نهى رسول الله ، ﷺ ، المؤمنين أن يبالغوا فى رفع أصواتهم ، حين رأى جماعة منهم يجأرون بالتكبير يوم خيبر ، فقال : « أربعوا على أنفسكم[٩] ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، وهو معكم) .

فلم يكن الغرض من العروج – إذن – أن يلقى محمد ﷺ ربه فى مكان بعيد ، إنما كان ذلك ليرى من ملكوت الله ما شاء الله أن يرى ، وليطلع من عجائب صنعه على ما شاء الله أن يطلع ، وليشهد من سعة ملك الله وجلال سلطانه وعظيم قدرته ما يزيده يقيناً على يقين ، وإيماناً على إيمان ، وليستشعر

---

* سورة المجادلة : ٧

** سورة البقرة : ١٨٦ .

(٩) أى ارفقوا بأنفسكم ولا تبالغوا فى رفع أصواتكم .

المنزلة الكريمة والدرجة الرفيعة التى أعدها له ربه .. وإلا ، فقد كان فيما يوحى إليه ربه على لسان أمينه جبريل كفاية وغناء .

على أن العلم لم يكتشف بعد حقيقة السموات ، ولا يزال من أمرها يخبط فى متاهة عمياء على رغم ما بلغه من تقدم وما بذله من جهود .. يقول الأستاذ حنفى أحمد فى كتابه « معجزة القرآن فى وصف الكائنات » ص ٥٠ : إن استعمال المراقب الحديثة فى الكشف قد أثبت بما لا يقبل الشك أن المجموعة الشمسية التى تتكون من الشمس وتوابعها من السيارات التى تدور حولها . . تسبح فى حشد عظيم من النجوم ، تظهر فى صورة نقط صغيرة من الضوء متميز بعضها عن بعض ، وأن هذه المجموعات تعرف الآن باسم (السديم أو مجموعة المجرة) .. وأن هناك – عدا هذه الآلاف المؤلفة من النجوم التى ترى فى المجرة – أجساماً أخرى ترى على هيئة سحب مضيئة قليلاً ، ولكن لا تظهر فيها نقط متميزة ، وقد أطلق عليها اسم (الجزائر الكونية) ، وهى السدم العظمى أو المجرات الخارجية ، وهى عبارة عن حشود هائلة من النجوم لم تستطع المراقب الحديثة توضيحها على رغم ما بلغت من قوة[١٠] ، نظراً لأبعادها الساحقة ، وقد دلت المشاهدات الدقيقة على وجود ملايين من هذه المجرات الخارجية منتشرة فى الفضاء .. فى طبقات متتالية يبلغ متوسط البعد بين بعضها والبعض الآخر مليوناً ونصف مليون من السنين الضوئية ، أى بمقدار مسافة يقطعها الضوء فى مليون ونصف مليون من هذه السنين ، على حين هو يقطع فى السنة الواحدة نحو ستة ملايين مليون من الأميال[١١] .

---

(١٠) بلغت قوة مرصد « مونت ولسن » بأمريكا أن تدخل فى العين من الشعاع ٢٥٠ ألف مرة قدر ما تدخله العين البشرية .

(١١) تبلغ سرعة الضوء فى الثانية الواحدة نحو ١٨٦ ألفاً من الأميال .

ثم يقول فى ص ٥٤ : وقد دل الحساب الرياضى من المشاهدات الدقيقة على أن أبعاد المجرات الخارجية عن المجرة مذهلة ، إذ وجد أن أقربها – ويدعى (سديم أندرو ميدا العظيم) يبعد عنها بنحو ٦٨٠ ألف سنة ضوئية ، أى بنحو سبع مرات قدر قطرها ، ثم تزيد أبعاد المجرات بعد ذلك إلى ملايين ، ثم عشرات الملايين ، ثم مئات الملايين من السنين الضوئية .

ثم يقول بعد ذلك فى ص ٦٢ : وقد دلت البحوث الدقيقة من التحليل الطيفى للمجرات الخارجية .. على أنها تتباعد عنا كما يتباعد بعضها عن بعض باستمرار ، وبسرعات عظيمة جدًّا تقدر بآلاف الأميال فى الثانية الواحدة ، فاستدلوا بحركاتها على أن الفضاء بين المجرات يتمدد ويتسع باستمرار . ويقول السير جينز : إنهم قدروا هذا التمدد بنحو مائة وخمسة أميال فى الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية ، وأن حجم الفضاء العالمى الآن يبلغ عشرة أمثال حجمه منذ بدأ تمدده ، أى أن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلاً على ضعف قدره الأصلى .

ويؤكد الأستاذ حنفى أحمد فى ص ٥٤ – على لسان السير جينز العالم الفلكى الإنجليزى – « أن الخطأ المحتمل فى تقدير الأبعاد العظيمة للأجرام السماوية وبالطرق المعتمدة لا يزيد على عشرة فى المائة » .

هكذا يقول العلم ، أو هكذا تقول التجارب التى قام بها العلم حتى الآن . فإذا نحن سايرنا العلم فى نظرياته فماذا عسى أن تكون سعة هذا الكون العجيب ، وأين تبدأ حدوده وأين تنتهى ؟ وأين تقع السموات السبع من هذه العوالم التى لا يدرك العقل كنهها ، ولا يعرف العلم مداها ؟ وكيف يكون الصعود فيها ، وكيف يكون الهبوط ، وكيف يكون الاستواء ؟ أليس الأمر – إذن – أوسع من أن يحده العلم ، وأعظم من أن يحكم فيه العقل ، وأعمق من أن تحيط به

الأفهام ؟ فـ (سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون .. وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم . وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون)[١٢] .

وبعد ، فقد وقع الإسراء والمعراج فيما بين السنة العاشرة والحادية عشرة من البعثة ، وهى الفترة التى يئس فيها رسول الله من إيمان قريش ، فذهب إلى ثقيف فردته أقبح رد ، فعاد مكلوم الفؤاد واهن القوة ، يضرع إلى الله ويستعينه ، ويشكو إليه ما يلاقى من صدود الناس عنه وسخرهم به وجرأتهم عليه ، فلعله كان من تطمين الله له ومن رحمته به أن هيأ له هذه الرحلة الملكوتية ، ليطمئن قلبه ، وليعلم أنه بعين الله دائماً أبداً ، وأن الله لن يتخلى عنه ولن يخلفه ما وعده من النصر ، وإن تراكمت أمامه العقبات ، واحلولكت حوله الظلمات .

لقد كان الإسراء رحلة مباركة فى الأرض ، بين المسجد الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل ، والمسجد الأقصى الذى بناه داود وسليمان ، وهما البيتان اللذان باركهما الله تعالى وبارك ما حولها ، فكانا مقر عبادة الله وتوحيده ، وكانا مهبط الوحى على رسله وأنبيائه . وقد مر ، ﷺ ، فى رحلته هذه بالبقعة المباركة التى كلم الله فيها موسى ، عليه السلام ، وهى (طورسينا) فصلى بها ركعتين ، ومر بالبقعة المباركة التى ولد فيها عيسى عليه السلام ، وهى (بيت لحم) فصلى بها ركعتين ، ثم وصل إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى حشد من الأنبياء والرسل ، فصلى بهم جميعا ثم عرج به إلى السماء ، فرأى من آيات ربه الكبرى ما شاء الله أن يرى .

وقد فصلت الأحاديث بعض ما رأى من هذه الآيات ، فقد رأى ﷺ

---

(١٢) سورة الزخرف : ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ .

حياة (البرزخ) وهى فترة ما بين الموت وقيام الساعة ، فرأى الأنبياء ، صلوات الله عليهم . ورأى منازلهم ودرجاتهم ، ورأى نفوس بنى آدم بعد موتها ، يتلقاها آدم أبو البشر فيفرح بطيبها ويحزن لخبيثها .. ورأى حقائق الأعمال مصورة فى صورها المحسوسة كما أراد الله أن تكون ، فرأى آل فرعون ومن على شاكلتهم من الطغاة والظلمة ، يعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا ، ورأى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، لهم مشافر كمشافر الإبل ، وبأيديهم قطع من النار كالحجارة يقذفونها فى أفواههم فتهوى إلى بطونهم ، ورأى الذين يأكلون الربا يوطئون بالأقدام فلا يستطيعون القيام ، كلما هموا لينهضوا سقطوا ، ورأى الزناة يتركون لحماً طيبا سميناً ، ويأكلون لحماً منتناً خبيثاً ، ورأى اللاتى يُدخلن على أزواجهن غير أولادهم معلقات بثديهن ، ورأى الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم . . ورأى الجنة والنار ووعد الآخرة ، ورأى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، ورأى غير ذلك من آيات الله وعجائب قدرته ، مما لم يكن يتسنى لأحد أن يراه إلا أن يكون من سمو الروح وصدق اليقين فى الدرجة التى كان هو ، ﷺ ، فيها .. وتلك درجة رفيعة ، ومنزلة خصه الله تعالى بها دون سائر خلقه ، ودون سائر أنبيائه ورسله الذين هم صفوة خلقه جميعاً .

وفى حضرة القدس الأعلى فرضت عليه الصلاة ، ولعلها كانت هى السر العظيم الذى أفضى به الملك الجليل إلى عبده ورسوله ، فإن الصلاة هى الصلة الدائمة بين العبد وربه ، وهى لب العبادة وجوهرها ، وعماد الدين وركازه .

ثم عاد ﷺ إلى مكة ، فأخبر بما كان من أمره فى تلك الليلة المباركة ، فكذبته قريش ، واستفظع الناس الخبر حتى افتتن به بعض من آمن ، أما الذين رسخت عقيدتهم وصدق إيمانهم فلم يروا فى الأمر عجباً ، فهذا الوحى ينزل

عليه من السماء كل يوم ، فأى فرق بين أن ينزل عليه جبريل بالوحى ، وبين أن يذهب به إلى حيث شاء الله أن يذهب ، ليتلقى من الوحى ما شاء الله أن يلقى إليه ، وليرى ما شاء الله له أن يرى .

وهكذا كان الحادث فتنة للناس ، تبين به إيمان الصادقين وغير الصادقين ، ولا يزال الناس إلى يومنا هذا ، وإلى ما شاء الله أن يكون ، يخوضون فى شأن (الإسراء والمعراج) فمنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن بالحكم فيما ليس له به علم . ولو أنهم وقفوا بالعقل عند حدوده ، وأبعدوه عما ليس من شأنه ، لما كان فى الأمر لبس ولا إشكال . وصدق الله العظيم إذ يقول : (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) (١٣) .

حقيقة النبوة

ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ، ثم نذكر حقيقة الكهانة ، ثم الرؤيا ، ثم شأن العرافين ، وغير ذلك من مدارك الغيب فنقول :

اعلم أرشدنا الله وإياك أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات واتصال الأكوان بالأكوان واستحالة بعض الموجودات إلى بعض ، لا تنقضى عجائبه فى ذلك ولا تنتهى غاياته ، وابدأ من ذلك بالعالم المحسوس الجثمانى ، وأولاً عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى السماء ، ثم إلى الهواء ، ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض ، وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً أو هابطاً ، ويستحيل بعض الأوقات ، والصاعد منها ألطف مما قبله إلى

---

(١٣) سورة آل عمران : ٦٦ .

أن ينتهى إلى عالم الأفلاك ، وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض ، على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط ، وبها يهتدى بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها ، وما بعد ذلك من وجود الذوات التى لها هذه الآثار فيها ، ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ، ثم النبات ، ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدرج ، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش وما لا بذر له ، وآخر أفق النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ، ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق الذى بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى فى تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر ، والروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذى اجتمع فيه الحس والإدراك ولم يتته إلى الروية والفكر بالفعل ، وكان ذلك أول أفق من الإنسان بعده وهذا غاية شهودنا . ثم إنا نجد فى العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة ، ففى عالم الحس آثار من حركات الأفلاك والعناصر ، وفى عالم التكوين آثار من حركة النمو والإدراك ، تشهد كلها بأن لها مؤثراً مبايناً للأجسام . فهو روحانى ويتصل بالمكونات لوجوب اتصال هذا العالم فى وجودها ، وذلك هو النفس المدركة والمحركة ، ولابد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك والحركة ويتصل بها أيضاً ، ويكون ذاته إدراكاً صرفاً وتعقلاً محضاً وهو عالم الملائكة ، فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ، ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات فى لمحة من اللمحات ، وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل كما نذكره بعد ، ويكون لها اتصال بالأفق الذى بعدها شأن الموجودات المرتبة ، كما قدمناه قبلها فى الاتصال جهتا العلو والسفل هى متصلة بالبدن من أسفل منها ،

ومكتسبة به المدارك الحسية التى تستعد بها للحصول على التعقل بالفعل ومتصلة من جهة الأعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلوية والغيبية ، فإن عالم الحوادث موجود فى تعقلاتهم من غير زمان ، وهذا على ما قدمناه من الترتيب المحكم فى الوجود باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض . ثم إن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة فى البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس وقواها. أما الفاعلية فالبطش باليد، والمشى بالرجل، والكلام باللسان والحركة الكلية بالبدن متدافعاً . وأما المدركة وإن كانت قوى الإدراك مرتبة ومرتقية إلى القوة العليا منها ، ومن الفكرة التى يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من السمع والبصر وسائرها يرتقى إلى الباطن ، وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك المحسوسات مبصرة ومسموعة وملموسة وغيرها فى حالة واحدة وبذلك فارقت قوة الحس الظاهر لأن المحسوسات لا تزدحم عليها فى الوقت الواحد ، ثم يؤديه الحس المشترك فى الخيال وهى قوة تمثل الشىء المحسوس فى النفس ، كما هو مجرداً عن المواد الخارجة فقط ، وآلة هاتين القوتين فى تصريفها البطن الأول من الدماغ مقدمة للأولى ومؤخرة للثانية ، ثم يرتقى الخيال إلى الواهمة والحافظة فالواهمة لإدراك المعانى المتعلقة بالشخصيات ، كعداوة زيد وصداقة عمرو ، ورحمة الأب وافتراس الذئب . والحافظة لإبداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة ، وهى لها كالخزانة تحفظها لوقت الحاجة إليها . وآلة هاتين القوتين فى تصريفها البطن المؤخر من الدماغ ، أوله للأولى ومؤخره للأخرى ، ثم ترتقى جميعها إلى قوة الفكر وآلته البطن الأوسط من الدماغ ، وهى القوة التى يقع بها حركة الرويّة والتوجه نحو التعقل ، فتحرك النفس بها دائماً لما ركب فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذى للبشرية ، وتخرج إلى الفعل فى تعقلها متشبهة بالملأ الأعلى الروحانى ،

وتصير فى أول مراتب الروحانيات فى إدراكها بغير الآلات الجسمانية . فهى متحركة دائماً ومتوجهة نحو ذلك ، وقد تنسلخ بالكلية من البشرية وروحانيتها إلى الملكية من الأفق الأعلى من غير اكتساب ، بل بما جعل الله فيها من الجبلة والفطرة الأولى فى ذلك . والنفوس البشرية على ثلاثة أصناف : صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحانى ، فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى ، نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعانى من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة ، وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التى للفكر فى البدن وكلها خيالى متحصر نطاقه ، إذ هو من جهة مبدئه ينتهى إلى الأوليات ولا يتجاوزها ، وإن فسد فسد ما بعدها ، وهذا هو فى الأغلب نطاق الإدراك البشرى الجسمانى وإليه تنتهى مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم . وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدراك الذى لا يفتقر إلى الآلات البدنية ، بما جعل فيه من الاستعداد لذلك ، فيتسع نطاق إدراكه عن الأوليات التى هى نطاق الإدراك الأول البشرى ، ويسرح فى فضاء المشاهدات الباطنية ، وهى وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها ، وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، وهى الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة فى البرزخ . وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ، ليصير فى لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل ويحصل له شهود الملأ الأعلى فى أفقهم ، وسماع الكلام النفسانى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة ، وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية فى تلك اللمحة ، وهى حالة الوحى فطرة فطرهم الله عليها ، وجبلة صورهم فيها ونزههم عن مواد البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية بما ركب فى غرائزهم من القصد والاستقامة التى

يحاذون بها تلك الوجهة ، وركز فى طبائعهم رغبة فى العبادة تكشف بتلك الوجهة وتسيغ نحوها ، فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا ، بتلك الفطرة التى فطروا عليها لا باكتساب ولا بصناعة ، فلذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا فى ذلك الملأ الأعلى ما يتلقونه ، وعرجوا به على المدارك البشرية منزلا فى قواها لحكمة التبليغ للعباد ، فتارة يسمع دويًّا كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذى ألقى إليه ، فلا ينقضى الدوى إلا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذى يلقى إليه فيكلمه ويعى ما يقوله ، والتلقى من الملك والرجوع إلى المدارك البشرية وفهمه ما ألقى عليه كله كأنه فى لحظة واحدة ، بل أقرب من لمح البصر ، لأنه ليس فى زمان ، بل كلها تقع جميعاً . فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحياً لأن الوحى فى اللغة الإسراع . (واعلم) أن الأولى وهى حالة الدوى هى رتبة الأنبياء غير المرسلين على ما حققوه ، والثانية وهى حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب هى رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأولى وهذا معنى الحديث الذى فسر فيه النبى ، ﷺ ، الوحى لما سأله الحارث بن هشام ، وقال كيف يأتيك الوحى فقال : أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول وإنما كانت الأولى أشد ، لأنها مبدأ الخروج فى ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل ، فيعسر بعض العسر ، ولذلك لما عرج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع وصعب ما سواه ، وعندما يتكرر الوحى ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال ، فعندما يعرج إلى المدارك البشرية يأتى على جميعها وخصوصاً الأوضح منها ، وهو إدراك البصر ، وفى العبارة عن الوعى فى الأولى بصيغة الماضى وفى الثانية بصيغة المضارع لطيفة من البلاغة وهى أن الكلام جاء مجىء التمثيل لحالتى الوحى

مثل الحالة الأولى بالدوى الذى هو فى المتعارف غير كلام ، وأخبر أن الفهم والوعى يتبعه غب انقضائه ، فناسب عند تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعى بالماضى المطابق للانقضاء والانقطاع ، ومثل الملك الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم ، والكلام يساوقه الوعى فناسب العبارة بالمضارع المقتضى للتجدد . واعلم أن فى حالة الوحى كلها صعوبة على الجملة وشدة فقد أشار إليها القرآن قال تعالى (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) وقالت عائشة كان مما يعانى من التنزيل شدة ، وقالت كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً ، ولذلك كان يحدث عنه فى تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف ، وسبب ذلك أن الوحى كما قررناه ، مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية وتلقى كلام النفس ، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات لذاتها وانسلاخها عنها من أفقها إلى ذلك الأفق الآخر ، وهذا هو معنى الغط الذى عبر به فى مبدأ الوحى فى قوله فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى . فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . وكذا ثانية ، وثالثة ، كما فى الحديث وقد تقضى الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض السهولة بالقياس إلى ما قبله ، ولذلك كان تنزل القرآن وسوره وآيه منجماً حين كان بمكة أقصر منها هو بالمدينة . وانظر إلى ما نقل فى نزول سورة براءة فى غزوة تبوك وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار للفصل فى وقت وينزل الباقى فى حين آخر . وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين ، وهى ما هى فى الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر والضحى والفلق وأمثالها ، واعتبر من ذلك علامة تميز بها بين المكى والمدنى من السور والآيات والله المرشد للصواب وإذا محصل أمر النبوة .

الرؤيـــا

وأما الرؤيا فحقيقتها مطالعة النفس الناطقة فى ذاتها الروحانية لمحة من صور الواقعات فإنها عندما تكون روحانية ، تكون صور الواقعات فيها موجودة بالفعل ، كما هو شأن الذوات الروحانية كلها ، وتصير روحانية بأن تتجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية ، وقد يقع لها ذلك لمحة بسبب النوم كما نذكر ، فتقتبس بها علم ما تتشوف إليه من الأمور المستقبلية وتعود به إلى مداركها ، فإن كان ذلك الاقتباس ضعيفاً وغير جلى بالمحاكاة والمثال فى الخيال لتخلطه فيحتاج من أجل هذه المحاكاة إلى التعبير ، وقد يكون الاقتباس قويًّا يستغنى فيه عن المحاكاة فلا يحتاج إلى تعبير لخلوصه من المثال والخيال والسبب فى وقوع هذه اللمحة للنفس أنها ذات روحانية مستكملة بالبدن ومداركه ، حتى تصير ذاتها تعقلاً محضاً ، ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتاً روحانية مدركة بغير شىء من الآلات البدنية ، إلا أن نوعها فى الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الأفق الأعلى الذين لم يستكملوا ذواتهم بشىء من مدارك البدن ولا غيره ، فهذا الاستعداد حاصل لها مادامت فى البدن ، ومنه خاص كالذى للأولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر الرؤيا . وأما الذى للأنبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية إلى الملكية المحضة التى هى أعلى الروحانيات ، ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكرراً فى حالات الوحى وهو عندما يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها مايقع من الإدراك شبيهاً بحال النوم شبهاً بيناً ، وإن كان حال النوم أدون منه بكثير . فلأجل هذا الشبه عبر الشارع عن الرؤيا بأنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، وفى رواية ثلاثة وأربعون ، وفى رواية سبعون . وليس العدد فى

جميعها مقصوداً بالذات ، وإنما المراد الكثرة فى تفاوت هذه المراتب ، بدليل ذكر السبعين فى بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب . وما ذهب إليه بعضهم فى رواية ستة وأربعين من أن الوحى كان فى مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر ، وهى نصف سنة ومدة النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاث وعشرون سنة ، فنصف السنة منها جزء من ستة وأربعين ، فكلام بعيد من التحقيق ، لأنه إنما وقع ذلك للنبى ، ﷺ ، ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الأنبياء ، مع أن ذلك يعطى نسبة زمن الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة . وإذا تبين لك هذا مما ذكرناه أولاً علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الأول الشامل للبشر إلى الاستعداد القريب الخاص بصنف الأنبياء الفطرى لهم صلوات الله عليهم . إذ هو الاستعداد البعيد وإن كان عامًّا فى البشر ، ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله بالفعل ، ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ، ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب الحواس بالنوم الذى هو جبلى لهم ، فتتعرض النفس عند ارتفاعه إلى معرفة ما تتشوف إليه فى عالم الحق ، فتدرك فى بعض الأحيان منه لمحة يكون فيها الظفر بالمطلوب ، ولذلك جعلها الشارع من الميسرات فقال لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له (وأما) سبب ارتفاع حجاب الحواس بالنوم فعلى ما أصفه لك ، وذلك أن النفس الناطقة إنما إدراكها وأفعالها بالروح الحيوانى الجسمانى ، وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف الأيسر من القلب على ما فى كتب التشريح (لجالينوس) وغيره ، وينبعث مع الدم فى الشريانات والعروق فيعطى الحس والحركة وسائر الأفعال البدنية ، ويرتفع لطيفه إلى الدماغ فيعدل من برده وتتم أفعال القوى التى فى بطونه . فالنفس الناطقة إنما تدرك وتعقل بهذا الروح البخارى ، وهى متعلقة به لما اقتضته حكمة

التكوين فى أن اللطيف لا يؤثر فى الكثيف ، ولما لطف هذا الروح الحيوانى من بين المواد البدنية صار محلاً لآثار الذات المباينة له فى جسمانيته ، وهى النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة فى البدن بواسطته ، وقد كنا قدمنا أن إدراكها على نوعين : إدراك بالظاهر ، وهو بالحواس الخمس . وإدراك بالباطن ، وهو بالقوى الدماغية ، وأن هذا الإدراك كله صارف لها عن إدراكها ما فوقها ، من ذواتها الروحانية التى هى مستعدة له بالفطرة ، ولما كانت الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفشل بما يدركها من التعب والكلال وتفشى الروح بكثرة التصرف ، فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الإدراك على الصورة الكاملة ، وإنما يكون ذلك بانخناس الروح الحيوانى من الحواس الظاهرة كلها ورجوعه إلى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل ، فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره إلى باطنه فتكون مشيعة مركبها ، وهو الروح الحيوانى إلى الباطن ، ولذلك كان النوم للبشر فى الغالب إنما هو بالليل ، فإذا انخنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع إلى القوى الباطنة ، وخفت عن النفس شواغل الحس وموانعه ورجعت إلى الصورة التى فى الحافظة تمثل منها بالتركيب والتحليل صور خيالية ، وأكثر ما تكون معتادة لأنها منتزعة من المدركات المتعاهدة قريباً ، ثم بتزلها الحس المشترك الذى هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء الحواس الخمس الظاهرة ، وربما التفتت النفس لفتة إلى ذاتها الروحانية مع منازعتها القوى الباطنية فتدرك بإدراكها الروحانى ، لأنها مفطورة عليه وتقتبس من صور الأشياء التى صارت متعلقة فى ذاتها حينئذ ، ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها بالحقيقة أو المحاكاة فى القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هى المحتاجة للتعبير وتصرفها بالتركيب والتحليل فى صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللمحة ما تدركه هى

أضغاث أحلام (وفى الصحيح) أن النبى ﷺ ، قال : الرؤيا ثلاث رؤيا من الله ، ورؤيا من الملك ، ورؤيا من الشيطان . وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه . فالجلى من الله ، والمحاكاة الداعية إلى التعبير من الملك ، وأضغاث الأحلام من الشيطان لأنها كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا . وما يسببها ويشيعها من النوم وهى خواص النفس الإنسانية موجودة فى البشر على العموم ، لا يخلو عنها أحد منهم بل كل واحد من الإنسان رأى فى نومه ما صدر له فى يقظته مراراً غير واحدة ، وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب فى النوم ولابد وإذا جاز ذلك فى عالم النوم فلا يمتنع فى غيره من الأحوال لأن الذات المدركة واحدة وخواصها عامة فى كل حال ، والله الهادى إلى الحسنى بمنه وفضله .

رياضة المتصوفة

وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعرية عن هذه المقاصد المذمومة ، وإنما يقصدون جمع الهمة والإقبال على الله بالكلية ، ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ، ويزيدون فى رياضتهم إلى الجمع والجوع . التغذية بالذكر فيها تتم وجهتهم فى هذه الرياضة ، لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله ، وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة ، إنما هو بالعرض ولا يكون مقصوداً من أول الأمر ، لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله ، وإنما هى لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسر بها صفقة ، فإنها فى الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثانى[1]،فهم

(١) أى قصد غير الله.

يقصدون بوجهتهم المعبود لا شيء سواه ، وإذا حصل فى أثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم، وكثير منهم يفرُّ منه إذا عرض له ولا يحفل به، وإنما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا ، وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكير فى حقهم . وقد ذهب إلى إنكاره الأستاذان أبو إسحاق الاسفرايني وأبو محمد بن أبى زيد المالكى فى آخرين فراراً من التباس المعجزة بغيرها ، والمعول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتحدى فهو كاف ، وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : إن فيكم محدثين ، وإن منهم عمر ، وقد وقع للصحابة من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك فى مثل قول عمر رضى الله عنه يا سارية الجبل ، وهو سارية من زنيم كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وتورط مع المشركين فى معترك ، وهم بالانهزام ، وكان بقربه جبل يتحيز إليه فرفع لعمر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه يا سارية الجبل وسمعه سارية وهو بمكانه ، ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة ، ووقع مثله أيضا لأبى بكر فى وصيته عائشة ابنته رضى الله عنهما فى شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديقته ، ثم نبهها على جذاذه لتحوزه عن الورثة ، فقال فى سياق كلامه وإنما هما أخواك وأختاك ، فقالت : إنما هى أسماء فمن الأخرى ، فقال : إن ذا بطن بنت المارجة أراها جارية فكانت جارية وقع فى الموطأ فى باب ما لا يجوز من النحل ، ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء ، إلا أن أهل التصوف يقولون إنه يقل فى زمن النبوة إذ لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبى حتى أنهم يقولون إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق .

بهاليل المريدين

ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء ، وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق ، مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الأخبار عن المغيبات عجائب ، لأنهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم فى ذلك ويأتون منه بالعجائب ، وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم . والولاية لا تحصل إلا بالعبادة وهو غلط ، فإن الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها . وإذا كانت النفس الإنسانية ثابتة الوجود فالله تعالى يخصها بما شاء من مواهبه وهؤلاء لم تعدم نفوسهم الناطقة ولا فسدت كحال المجانين . وإنما فقد لهم العقل الذى يناط به التكليف ، وهى صفة خاصة للنفس ، وهى علوم ضرورية للإنسان يشتد بها نظره ويعرف أحوال معاشه واستقامة منزله ، وكأنه إذا ميز أحوال معاشه واستقامة منزله لم يبق له عذر فى قبول التكاليف لإصلاح معاده ، وليس من فقد هذه الصفة بفاقد لنفسه ، ولا ذاهل عن حقيقته فيكون موجوداً لحقيقة معدوم العقل التكليفى الذى هو معرفة المعاش ، ولا استحالة فى ذلك ولا يتوقف اصطفاء الله عباده للمعرفة على شيء من التكاليف ، وإذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تفسد نفوسهم الناطقة ، ويلتحقون بالبهائم ولك فى تمييزهم علامات منها : أن هؤلاء البهاليل تجد لهم وجهة ما لا يخلون عنها أصلا من ذكر وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه من عدم التكليف ، والمجانين لا تجد لهم وجهة أصلاً . ومنها أنهم يخلقون

obeikandi.com

على البله من أول نشأتهم ، والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية ، فإذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالخيبة ومنها كثرة تصرفهم فى الناس بالخير والشر ، لأنهم لايتوقفون على إذن لعدم التكليف فى حقهم ، والمجانين لاتصرف لهم والله المرشد للصواب .

السحر وتفسيره فى تفاسير القرآن

وردت كلمة السحر فى القرآن ستين مرة ويمكن لمن يريد حصرها الرجوع إلى معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبد الباقى مادة (سحر) . ويقول المفسرون لسورة البقرة إن اليهود عارضوا الرسول ﷺ : بالتوراة . فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت . وقديماً ألقت الشياطين إلى بنى آدم أن ما فعله سليمان من ركوب البحر واستسخار الطير كان سحراً .

والسحر قيل أصله : التمويه بالحيل والتخابيل وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعان ، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هى به ، كالذى يرى السراب من بعيد فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب القطار المتحرك حقيقة حين يخيل إليه أن ما حوله من الأشجار والجبال تسير معه .

وقيل : إن أحداً له الاستمالة وكل من استمالك فقد سحرك . وقال الجوهرى : السحر الأخذ . وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر .

والساحر . العالم ، وسحره أيضا بمعنى خدعه . وقال ابن مسعود ، كنا نسمى السحر فى الجاهلية العضة . والعضة عند العرب : شدة البهت وتمويه الكذب .

وفى (عيون المعانى) ذكر الفرنوى الحنفى : أن السحر عند المعتزلة خدع لا أصل لها ، وعند الشافعى وسوسة وأمراض ، وقال : وعندنا أصله طلسم يبنى عند تأثير خصائص الكواكب ، كتأثير الشمس فى زئبق عصى فرعون ، أو تعظيم الشياطين ليسهلوا ما عسر ، وعند القرطبى أنه حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء ، ثم من السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ، والشعوذى : البريد لخفة سيره . قال ابن فارس فى المجمل : الشعوذة ليست من كلام أهل البادية ، وهى خفة فى اليدين وأخذة كالسحر ، ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى ، وقد يكون من عهود الشياطين ، ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك .

وقد سمى رسول الله ﷺ ، الفصاحة فى الكلام واللسانة فيه سحراً . فقال : « إن من البيان لسحرا » : أخرجه مالك ، وذلك لأن فيه تصويب الباطل حتى ليتوهم السامع أنه عين الحق ، أى أن الرجل يكون عليه الحق ، ولكنه الحق بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق وهو عليه .

ومن السحر ما يكون كفراً من صاحبه مثل ما يدعون من تغيير صور الناس وإخراجهم فى هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر فى ليلة والطيران فى الهواء . فكل من فعل ليوهم الناس أنه محق . فذلك كفر منه . قال القشيرى . قال أبو عمرو : من زعم أن الساحر يقلب الحيوان من صورة إلى صورة أو يقدر على نقل الأجساد وهلاكها وتبديلها ، فهو كافر يدعى القدرة على الإتيان بمثل آياتهم ومعجزاتهم .

وذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة ، وذهب عامة المعتزلة وأبو إسحاق الاستر ابادى من أصحاب الشافعى إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام ، لكون الشىء على ما هو به وأنه ضرب من الخفة

والشعوذة كما قال تعالى : (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) ولم يقل تسعى على الحقيقة ولكن قال : يخيل إليه .

وقال أيضاً : (سحروا أعين الناس) وهذا لا حجة فيه ، لأننا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر ، لكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع . فمن ذلك ما جاء فى هذه الآية من ذكر السحر وتعليمه ، ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس فدل على أن له حقيقة ، وقوله تعالى فى قصة سحرة فرعون : (وجاءوا بسحر عظيم) وما ذكرناه سابقاً من سحر لبيد بن الأعصم للرسول .

ولقد شاع السحر وذاع فى سابق الزمان وتكلم الناس فيه ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله . وروى سفيان عن أبى الأعور عن عكرمة عن ابن عباس قال : علم السحر فى قرية من قرى مصر يقال لها (الفرقا) فمن كذب به فهو كافر ، مكذب لله ورسوله ، منكر لما علم مشاهدة وعياناً .

قال علماؤنا : لا ينكر أن يظهر السحر على يد الساحر خرق العادات ، بما ليس فى مقدور البشر من مرض وتفريق بين المرء وزوجه ، وزوال عقل وتعويج عضو إلى غير ذلك . مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات البشر.. ولا يبعد فى السحر أن يستدق جسم الساحر حتى يدخل فى الكوات والخوخات والانتصاب على رأس قصبة والجرى على خيط مستدق والطيران فى الهواء والمشى على الماء وركوب كلب وغير ذلك ، ومع ذلك فلا يكون موجباً لذلك ولا علة لوقوعه ولا سبباً مولداً ولا يكون الساحر مستقلاً به ، وإنما يخلق الله تعالى هذه الأشياء ويحدثها عند وجود السحر كما يخلق الشبع عند الأكل والرى عند شرب الماء.. ويجب أن نعلم مع ذلك أن الله لا يفعل معجزات

الأنبياء عند إرادة الساحر ذلك ، فلا يفلق البحر ، ولا يقلب العصا ، ولا يحيي الموتى ، ولا ينطق الأعجمى . . فالذى يحدث من الساحر متميز عن المعجزة فالسحر يوجد من الساحر وغيره وقد يقع من جماعة يعرفونه ويأتون به فى وقت واحد أما المعجزة فشرطها اقتران دعوى النبوة والتحدى بها .

واختلف الفقهاء فى حكم المسلم والذمى فذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً يقتل .. ولا يستتاب ولا تقبل توبته . لأن الله سبحانه سمى السحر كفراً بقوله : (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) ، وهو قول أحمد بن حنبل ، وأبى ثور ، وإسحاق ، والشافعى ، وأبى حنيفة .. وإن كان الكلام الذى سحر به ليس بكفر لم يجز قتله ، فإن كان أحدث فى المسحور ، جناية توجب القصاص ، اقتص منه إن كان عمد ذلك وإن كان مما لا قصاص فيه ففيه دية ذلك .. ونحن نؤكد أن دماء المسلمين محظورة لا تستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف .

وروى عن الشافعى : لا يقتل الساحر إلا أن يقتل بسحره ويقول تعمدت القتل ، وإن قال لم أتعمد لم يقتل وكانت فيه الدية كقتل الخطأ ، وإن أضر به أدِّب على قدر الضرر .

واحتج أصحاب مالك : بأنه لا تقبل توبته لأن السحر باطن لا يظهره صاحبه فلا تعرف توبته كالزنديق ، واختلفوا هل يسأل الساحر حول السحر عن المسحور فأجازه سعيد بن المسيب على ما ذكره البخارى ، وكرهه الحسن البصرى . وقال الشافعى : لا بأس بالنشرة .. قال ابن بطال : وفى كتاب وهب ابن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ عليه آية الكرسى ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل فإنه يذهب عنه كل ما به إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله .

obeikandi.com

وقد أنكر المعتزلة الشياطين والجن ولكن الشرع نص على ثبوته . وسورة الجن تقضى بذلك ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم » .. والسحر من استخراج الشياطين للطافة جوهرهم ودقة أفهامهم وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء وخاصة فى حال طمثهن .

الكهانة (١٤)

وأما الكهانة فهى أيضاً من خواص النفس الإنسانية ، وذلك أنه قد تقدم لنا فى جميع ما مر أن للنفس الإنسانية استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التى فوقها ، وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الأنبياء بما فطروا عليه من ذلك ، وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشىء من المدارك ولا من التصورات ولا من الأفعال البدنية كلاماً أو حركة ولا بأمر من الأمور ، إنما هو انسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر ، وإذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجوداً فى الطبيعة البشرية ، فيعطى التقسيم العقلى أن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل ، لأن عدم الاستعانة فى ذلك الإدراك ضد الاستعانة فيه وشتان ما بينهما ، فإذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالإرادة عندما يبعثها النزوع لذلك ، وهى ناقصة عنه بالجبلة ، فيكون لها بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة ، كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام ، وما سنح من طير أو حيوان فيستديم

---

(١٤) مقدمة ابن خلدون .

ذلك الإحساس أو التخيل مستعيناً به فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده ، ويكون كالمشيع له وهذه القوة التى فيهم مبدأ لذلك الإدراك هى الكهانة ، ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان إدراكها فى الجزئيات أكثر من الكليات ، ولذلك تكون المخيلة فيهم فى غاية القوة لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاً تامًّا فى نوم أو يقظة ، وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المخيلة وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً ، ولا يقوى الكاهن على الكمال فى إدراك المعقولات لأن وحيه من وحى الشيطان ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشىء على ذلك الاتصال الناقص فيهجس فى قلبه عن تلك الحركة والذى يشيعها من ذلك الأجنبى ما يقذفه على لسانه ، فربما صدق ووافق الحق وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبى عن ذاته المدركة ومباين لها غير ملائم ، فيعرض له الصدق والكذب جميعا ولا يكون موثوقاً به ، وربما يفزع إلى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك بزعمه ، وتمويهاً على السائلين ، وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان ، لأنهم أرفع سائر أصنافهم . وقد قال ﷺ فى مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع مختصا بهم بمقتضى الإضافة ، وقد قال لابن صياد حين سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار كيف يأتيك هذا الأمر ؟ قال : يأتينى صادقا وكاذبا . فقال خلط عليك الأمر ، يعنى أن النبوة خاصتها الصدق ، فلا يعتريها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الأعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبى ، والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه إلى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة فى إدراكه والتبست بالإدراك الذى توجه إليه فصار مختلطاً بها وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نسوة وإنما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لأن معنى

السجع أخف من سائر المُغيَّبات من المرئيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والإدراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء ، (وقد زعم) بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع فى القرآن ، والكهان إنما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ، ولا يقوم من ذلك دليل لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قررناه أيضاً . فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك ، وأيضا فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة فقط ، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد فى زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس لأن النبوة هى النور الأعظم الذى يخفى معه كل نور ويذهب ، وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لابدّ له من وضع فلكى يقتضيه وفى تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التى دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك النوع الذى يقتضيه وهو معنى الكاهن على ما قررناه ، فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن إما واحداً أو متعدداً ، فإذا تم ذلك الوضع تم وجود النبى بكماله وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة ، فلا يوجد منها شيء بعد (وهديناه) على أن بعض الوضع الفلكى يقتضى بعض أثره وهو غير مسلم فلعل الوضع إنما يقتضى ذلك الأثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضى شيئا لا أنه يقتضى ذلك الأثر ناقصاً كما قالوه ، ثم إن هؤلاء الكهان إذا عاصروا زمن النبوة فإنهم عارفون بصدق

النبى ودلالة معجزته ، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل إنسان من أمر النوم ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما للنائم ، ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم فى التكذيب إلا قوة المطامع فى أنها نبوة فيقعون فى العناد كما وقع لأمية بن أبى الصلت فإنه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع لابن صياد ولمسيلمة وغيرهم ، فإذا غلب الإيمان وانقطعت تلك الأمانى آمنوا أحسن إيمان ، كما وقع لطليحة الأسدى وسواد بن قارب وكان لهما فى الفتوحات الإسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الإيمان .

العرافون (١٥)

ثم إنا نجد فى النوع الإنسانى أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم ، يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون فى ذلك إلى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين فى الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجر فى الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة فى عالم الإنسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لأول موته أو نومه يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك فى الغيب على سبيل الكرامة معروفة . ونحن الآن نتكلم على هذه الإدراكات كلها واحدة واحدة إلى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة، فى أن

(١٥) مقدمة ابن خلدون .

النفس الإنسانية كيف تستعد لإدراك الغيب فى جميع الأصناف التى ذكرناها، وذلك أنها ذات روحانية، موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات، كما ذكرناه قبل، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله ، وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ، وصورة هذه النفس التى بها يتم وجودها هو عين الإدراك والتعقل ، فهى توجد أولا بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية ، ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن وما يعودها بورود مدركاتها المحسوسة عليها وما تنتزع من تلك الإدراكات من المعانى الكلية . فتتعقل الصورة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى ، والصور متعاقبة عليها بالإدراك واحدة بعد واحدة ولذلك نجد الصبى فى أول نشأته لا يقدر على الإدراك الذى لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما ، وذلك لأن صورتها التى هى عين ذاتها وهى الإدراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ، ثم إذا تمت ذاتها بالفعل حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها المدارك البدنية.. وإدراك بذاتها من غير واسطة، وهى محجوبة عنه بالانغماس فى البدن والحواس وبشواغلها، لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولا من الإدراك الجسمانى وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التى هى للإنسان على الإطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر ، مثل الكهانة أو بالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتلتفت حينئذ إلى الذوات التى فوقها من الملأ الأعلى لما بين أفقها وأفقهم من الاتصال فى الوجود كما قررناه قبل ، وتلك الذوات روحانية وهى إدراك محض بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها كما مر ، فيتجلى فيها شىء من تلك الصورة تقتبس منها

علوماً وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال فيصرفه فى القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما أدركت ، إما مجردا أو فى قوالبه فتخبر به ، هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبى ولنرجع إلى ما وعدنا به من بيان أصنافه (فأما) الناظرون فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الكهان ، إلا أنهم أضعف رتبة فيه فى أصل خلقهم ، لأن الكاهن لا يحتاج فى رفع حجاب الحس إلى كثير معاناة وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها فى نوع واحد منها وأشرفها البصر فيعكف على المرئى البسيط حتى يبدو له مدركه الذى يخبر به عنه ، ربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه هو فى سطح المرآة وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون فى سطح المرآة إلى أن يغيب عن البصر ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب ، كأنه غمام يتمثل فيه صور هى مداركهم فيشيرون إليهم بالمقصود لما يتوجهون إلى معرفته من نفى أو إثبات ، فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه، وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور، فلا يدركونه فى تلك الحال وإنما ينشأ لهم بها هذا النوع الآخر من الإدراك ، وهو نفسانى ليس من إدراك البصر بل يتشكل به المدرك النفسانى للحس كما هو معروف ، ومثل ذلك ما يعرض للناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين فى الماء والطساس وأمثال ذلك ، وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يخبر كما أدرك ، ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة فى الهواء تحكى لهم أحوال ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثال والإشارة ، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الأولين والعالم أبو الغرائب ، وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان والفكر فيه بعد مغيبة ، وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من

مرئى أو مسموع وتكون قوته المخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها فى البحث مستعينا بما رآه أو سمعه فيؤديه ذلك إلى إدراك ما كما تفعله القوة المتخيلة فى النوم وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس المرئى فى يقظته وتجمعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا وأما المجانين فنفوسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمزجتهم غالبا وضعف الروح الحيوانى فيها فتكون نفسه غير مستغرقة فى الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها فى نفسها من ألم النقص ومرضه وربما زاحمها على التعلق به روحانية أخرى شيطانية تتشبث به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخبط فإذا أصابه ذلك التخبط أما لفساد مزاجه من فساد فى ذاتها أو لمزاحمة من النفوس الشيطانية فى تعلقه غاب عن حسه جملة فأدرك لمحة من عالم نفسه وانطبق فيها بعض الصور وصرفها الخيال وربما نطق على لسانه فى تلك الحال من غير إرادة النطق وإدراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق بالباطل لأنه لا يحصل لهم الاتصال وإن فقدوا الحس إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية كما قررناه ومن ذلك يجيء الكذب فى هذه المدارك . وأما العرافون فهم المتعلقون بهذا الإدراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الأمر الذى يتوجهون إليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والإدراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل هذه الأمور) وقد تكلم عليها المسعودى فى مروج الذهب فما صادف تحقيقا ولا إصابة ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ فى المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله وهذه الإدراكات التى ذكرناها موجودة كلها فى نوع البشر فقد كان العرب يفزعون إلى الكهان فى تعرف الحوادث ويتنافرون إليهم فى الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم وفى كتب أهل الأدب كثير من ذلك واشتهر منهم فى الجاهلية شق من أنمار بن نزار وسطيح بن مازن بن غسان

وكان فى العرب منهم كثير وذكروهم فى أشعارهم قال :

فقلت لعراف اليمامة داونى   فانك إن داويتنى لطبيب

وقال الآخر :

جعلت لعراف اليمامة حكمة   وعراف نجد إن هما شفيانى

فقالا شفاك الله والله مالنا   بما حملت منك الضلوع يدان

وعراف اليمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجد الأبلق الاسدى (ومن هذه المدارك الغيبية) ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة اليقظة والتباسه بالنوم من الكلام على الشىء الذى يتشوف إليه بما يعطيه غيب ذلك الأمر كما يريد ولا يقع ذلك إلا فى مبادئ النوم عند مفارقة اليقظة وذهاب الاختيار فى الكلام فيتكلم كأنه مجبول على النطق وغايته أن يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رءوسهم وأوساط أبدانهم كلام بمثل ذلك ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من سجونهم أشخاصاً ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم فى أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع وذكر مسلمة فى كتاب الغاية له فى مثل ذلك أن آدمياً إذا جعل فى دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوماً يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه إلا العروق وشئون رأسه فيخرج من ذلك الدهن ، فحين يجف عليه الهواء يجيب عن كل شىء يسأل عنه من عواقب الأمور الخاصة والعامة وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة ، لكن يفهم منه عجائب العالم الإنسانى ، ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبى بالرياضة ، فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعياً بإماتة جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التى تلونت بها النفس ، ثم تغذيتها بالذكر لتزداد قوة فى نشئها ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع ، ومن المعلوم على القطع أنه إذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك

obeikandi.com

بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت مايقع لهم بعده وتطلع النفس على المغيبات ، من هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالا خصوصاً بلاد الهند ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والأخبار عنهم في ذلك غريبة .

المنجمون (١٦)

وقد يزعم بعض الناس أن هناك مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس ، فمنهم المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ، ويتأدى من ذلك المزاج إلى الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء ، إنما هي ظنون حدسية وتخمينات مبنية على التأثيرات النجومية ، وحصول المزاج منه للهواء مع مزيد من حدس يقف به الناظر على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس ، ونحن نبين بطلان ذلك في محله إن شاء الله ، وهو لو ثبت فغايته حدس وتخمين وليس مما ذكرناه في شيء ، ومن هؤلاء قوم من العامة اتخذوا استخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها خط الرمل نسبة إلى المادة التي يضعون فيها عملهم ، ومحصول هذه الصناعة أنهم صيروا من النقط أشكالا ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيهما ، فكانت ستة عشر شكلا ، لأنها إن كانت أزواجا كلها أو أفراداً كلها فشكلان ، وإن كان الفرد فيها في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وإن كان الفرد في مرتبتين فستة أشكال وإن كان في ثلاث مراتب فأربعة أشكال جاءت

(١٦) مقدمة ابن خلدون .

ستة عشر شكلا ، ميزوها كلها بأسمائها وأنواعها إلى سعود ونحوس شأن الكواكب ، وجعلوا لها ستة عشر بيتاً طبيعية بزعمهم ، وكأنها البروج الاثنا عشر التى للفلك والأوتاد الأربعة وجعلوا لكل شكل منها بيتاً وخطوطاً ودلالة على صنف من موجودات عالم العناصر يختص به ، واستنبطوا من ذلك فنًّا حاذوا به فن النجامة ونوع قضائه ، إلا أن أحكام النجامة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما زعم بطليموس ، وهذه إنما مستندها أوضاع تحكمية وأهواء اتفاقية ولا دليل يقوم على شيء منها ، ويزعمون أن أصل ذلك من النبوات القديمة فى العالم ، وربما نسبوها إلى دانيال أو إلى إدريس صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها ، وربما يدعون مشروعيتها ويحتجون بقوله ﷺ كان نبيا يخط فمن وافق خطه فذاك ، وليس فى الحديث كان نبى يخط فيأتيه الوحى عند ذلك الخط ولا استحالة فى أن يكون ذلك عادة لبعض الأنبياء فمن وافق خطه ذلك النبى فهو ذاك أى فهو صحيح من بين الخط بما عضده من الوحى لذلك النبى الذى كانت عادته أن يأتيه الوحى عند الخط وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجرداً من غير موافقة وحى فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم . فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عدد المراتب ٢الأربعة ، ثم كرروا ذلك أربع مرات فتجيء ستة عشر سطراً ، ثم يطرحون النقط أزواجاً ويضعون ما بقى من كل سطر زوجاً كان أو فرداً فى مرتبته على الترتيب فتجيء أربعة أشكال يضعونها فى سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قابلها من الشكل الذى بإزائه وما يجتمع منهما من زوج أو فرد ، فتكون ثمانية أشكال موضوعة فى سطر ، ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتها باعتبار ما يجتمع فى كل مرتبة من مراتب الشكلين أيضاً من زوج أو فرد فتكون أربعة أخرى تحتها ، ثم يولدون

من الأربعة شكلين كذلك تحتها ، ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتهما ، ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الأول شكلا يكون آخر الستة عشر ، ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة بالذات والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكماً غريباً ، وكثرت هذه الصناعة فى العمران ووضعت فيها التآليف واشتهر فيها الأعلام من المتقدمين والمتأخرين ، وهى كما رأيت تحكم وهوى ، والتحقيق الذى ينبغى أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفطورين على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح ، ولذلك يسمى المنجمون هذا الصنف كلهم بالزهر بين نسبة إلى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم فى أصل مواليدهم على إدراك الغيب فالخط وغيره من هذه إن كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الأمور التى ينظر فيها من النقط أو العظام أو غيرها إشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما ، فهو من باب الطرق بالحصى والنظر فى قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة ، كما ذكرناه ، وإن لم يكن كذلك وإنما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيده ذلك فهذر من القول والعمل ، والله يهدى من يشاء ، والعلامة لهذه الفطرة التى فطر عليها أهل هذا الإدراك الغيبى أنهم عند توجههم إلى تعرف الكائنات يعتريهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتثاؤب والتمطط ومبادئ الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك الغيب فى شىء وإنما هو ساع فى تنفيذ كذبه .

حساب الحروف وعلم اليازرجة[١٧]

ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الأول الذى هو من مدارك النفس الروحانية ، ولا من الحدس المبنى على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظن والتخمين الذى يحاول عليه العرافون ، وإنما هى مغالط يجعلونها كالمصايد لأهل العقول المستضعفة ، ولست أذكر من ذلك إلا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص ، فمن تلك القوانين الحساب الذى يسمونه حساب النيم وهو مذكور فى آخر كتاب السياسة المنسوب لأرسطو يعرف به الغالب من المغلوب فى المتحاربين من الملوك ، وهو أن تحسب الحروف التى فى اسم أحدهما بحساب الجمل المصطلح عليه فى حروف أبجد من الواحد إلى الألف آحاد أو عشرات ومئين وألوفا ، فإذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ، ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقيّة هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين ، فإن كان العددان مختلفين فى الكمية وكانا معاً زوجين أو فردين معاً ، فصاحب الأقل منهما هو الغالب وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً ، فصاحب الأكثر هو الغالب وإن كانا متساويين فى الكمية وهما معاً زوجان ، فالمطلوب هو الغالب وإن كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب .

ثم وضعوا لمعرفة ما بقى من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفاً عندهم فى طرح تسعة ، وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد فى المراتب

(١٧) مقدمة ابن خلدون .

الأربع فكان منها كلمة رباعية وهى ايقش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين فى المراتب وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لأنها كانت آخر حروف أبجد ، فكان مجموع حروف الاثنين فى المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهى بكر ، ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة جلس وكذلك إلى آخر حروف أبجد ، وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد وهى أيقس بكر جلس دمت هنث وصح زعذ حفظ طصغ مرتبة على توالى الأعداد ، ولكل كلمة منها عددها الذى هى فى مرتبته ، فالواحد لكلمة أيقش ، والاثنان لكلمة بكر ، والثلاثة لكلمة جلس وكذلك إلى التاسعة التى هى طصغ ، فتكون لها التسعة ، فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه فى أى كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه ثم جمعوا الأعداد التى يأخذونها بدلا من فروق الاسم ، فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فصل عنها وإلا أخذوه كما هو ، ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه ، والسر فى هذا القانون بين ، وذلك أن الباقى من كل عقد من عقود الأعداد يطرح تسعة إنما هو واحد ، فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة ، فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والألفين وكلها اثنان ، وكذلك الثلاثة والثلثمائة الآلاف كلها ثلاثة ثلاثة ، فوضعت الأعداد على التوالى دالة على أعداد العقود لا غير ، وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود فى كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والألوف[١٨] وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائباً عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد أو العشرات أو المئين ، فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التى فيها وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه ، هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم ، وكان بعض من

(١٨) قوله والألوف فيه نظر لأن الحروف ليس فيها ما يزيد على الألف كما سبق فى كلامه .

لقيناه من شيوخنا يرى أن الصحيح فيها كلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتوالية كتواليها ، ويفعلون بها فى الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالأخرى سواء ، وهى هذه : ارب يسقك جزلط مدوص هف تحذن عش خغ ثضنط تسع كلمات على توالى العدد ولكل كلمة منها عددها الذى فى مرتبته فيها الثلاثى والرباعى والثنائى وليست جارية على أصل مطرد كما تراه ، لكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المغرب فى هذه المعارف من السيميا وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس ابن البناء ، ويقولون عنه إن العمل بهذه الكلمات فى طرح حساب النيم أصح من العمل بكلمات ايقس اعلم كيف ذلك ، وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان ولا تحقيق ، والكتاب الذى وجد فيه حساب النيم غير معزو إلى أرسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان ، يشهد لك بذلك تصفحه إن كنت من أهل الرسوخ ا هـ ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة بزايرجة العالم المعزوة إلى أبى العباس سيدى أحمد السبتى من أعلام المتصوفة بالمغرب كان فى آخر المائة السادسة بمراكش ، ولعهد أبى يعقوب المنصور من ملوك الموحدين ، هى غريبة العمل صناعة ، وكثير من الخواص يولعون بإفادة الغيب منها بعملها المعروف الملغوز ، فيحرضون بذلك على حل رمز وكشف غامضه وصورتها التى يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة فى داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم ، وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها ، أما البروج وأما العناصر أو غيرهما وخطوط كل قسم مارة إلى المراكز ويسمونها الأوتار ، وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة ، فمنها برشوم[١٩] الغبار المتعارفة فى داخل الزايرجة وبين الدوائر أسماء العلوم

(١٩) قوله برشوم أى موضوعة بضم الراء جمع رشم بالشين المعجمة ا هـ.

ومواضع الأكوان وعلى ظاهر الدوائر جدول متكثر البيوت المتقاطعة طولا وعرضاً يشتمل على خمسة وخمسين بيتاً فى العرض ومائة واحد وثلاثين فى الطول جوانب منه معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الأعداد فى أوضاعها ولا القسمة التى عينت البيوت العامرة من الخالية وحفا فى الزايرجة أبيات من عروض الطويل على روى اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل فى استخراج المطلوب من تلك الزايرجة ، إلا إنها من قبيل الألغاز فى عدم الوضوح والجلاء ، وفى بعض جوانب الزابرجة بيت من الشعر منسوب لبعض أكابر أهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء إشبيلية كان فى الدولة اللمتونية ونص البيت .

سؤال عظيم الخلق حرت فصن إذن غرائب شك ضبطه الجد مثلا

وهو البيت المتداول عندهم فى العمل لاستخراج الجواب من السؤال فى هذه الزابرجة .

الحســـد

هل هو ظاهرة روحية ؟ وتفسيره فى تفاسير القرآن وكلمة العلم الحديث

وردت كلمة الحسد فى القرآن خمس مرات حيث يقول تعالى :

(ومن شر حاسد إذا حسد) آية ٥ من سورة الفلق (حاسد – حسد)

(فسيقولون بل تحسدوننا) آية ١٥ من سورة الفتح .

(أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) آية ٥٤ من سورة النساء .

(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من

عند أنفسهم) آية ١٠٩ / البقرة

كان الرسول ﷺ يتعوذ بالمعوذتين ويحض أصحابه قائلا .. فما تعوذ متعوذ بمثلها . وروى النسائى عن عبد الله قال : أصابنا طش وظلمة .. فخرج رسول الله ﷺ ليصلى بنا فقال قل . فقلت ما أقول ؟ قال : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاثاً يكفك كل شىء » . وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة (رضى الله عنها) أن النبى ﷺ كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها . (ينفث أى ينفخ ليس معه ريق) .

وثبت فى الصحيحين من حديث عائشة (رضى الله عنها) أن النبى ﷺ سحره يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان يخيل إليه أنه كان يفعل الشىء ولا يفعله ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ، أتانى ملكان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال : (الذى عند رأسى للذى عند رجلى) ما شأن الرجل ؟ قال مطبوب (مسحور) قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد ابن الأعصم قال : فيما ذا ؟ قال فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر تحت راعوفة بئر ذى أروان ، فجاء البئر واستخرجه . انتهى الصحيح .

ثم بعث عليًّا والزبير وعمار بن ياسر فأخرجوا الجف من البئر ، فإذا مشاقة رأس إنسان وأسنان من مشط وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر ، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد . وأمر أن يتعوذ بهما ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد النبى ﷺ خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فكأنما أنشط من عقال وقام ليس به بأس ، وجعل جبريل يرقى رسول الله ﷺ فيقول : باسم الله أرقيك من كل شىء

يؤذيك ومن شر حاسد وعين والله يشفيك . فقالوا : يا رسول الله ألا نقتل الخبيث . فقال ﷺ : أما أنا فقد شفانى الله وأكره أن أثير على الناس شرًّا ..

والحسد هو تمنى زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها وأما المنافسة وهى الغبطة هى تمنى مثلها وإن لم تزل . فالحسد مذموم والغبطة مباحة . وروى أن النبى ﷺ قال : « المؤمن يغبط والمنافق يحسد » وقال ﷺ : « إذا حسدت فلا تبغ » والحسد أول ذنب عصى به الله فى السماء حين حسد إبليس آدم ، وأول ذنب عصى به الله فى الأرض حين حسد قابيل هابيل .

والحاسد عدو نعمة الله . قال بعض الحكماء بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه .

أحدها : أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره .

ثانيها : أنه ساخط لقسمة ربه كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة ؟

وثالثها : أنه ضاد فعل الله أى بخل بفضل الله .

ورابعها : أنه خذل أولياء الله بتمنّيه زوال النعمة عنهم .

وخامسها : أنه أعان بحسده عدوه إبليس .

وروى أن النبى ﷺ قال : ثلاث لا يستجاب دعاؤهم : آكل الحرام ، ومكثر الغيبة ، ومن كان فى قلبه غل أو حسد للمسلمين » .

والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب . قال الحسن : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد . وقال عبد الله بن مسعود : لا تعادوا نعم الله . قيل له : ومن يعادى نعم الله ؟ قال : الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .

وجاء فى صحيح الحديث قول الرسول ﷺ : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو

ننفقه فى سبيل الله آناء الليل وآناء النهار».

ونود أن نشير هنا إلى بعض المعاصرين من أبناء هذا الجيل ، برغم ما سبق ذكره من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة ، الذين لا يؤمنون بالحسد اعتقاداً منهم أنه خرافة ، ولكن العلم الحديث قد أيد صحة ظاهرة الحسد والروحية الحديثة[٢٠] تؤكد أن الحاسد شخص يمتلك قوى غامضة فى مكنته أن يستخدمها فى الخير أو الشر على السواء ، وكلما كان استخدامه لها فى الشر نمت لديه تلك القوى المدمرة وازداد أثرها . ومع ذلك فإن الحاسد سرعان ما يشيد حوله أسوارا من قواه الروحية بحيث يضعف من آثار النظر الشرير ، وييسر من شرها حتى دون علم من المحسود نفسه . شأنها فى ذلك شأن كرات الدم الحمراء التى تثور إذا ما غزا الجسم بكتريا معدية فتهاجمها حتى تقضى عليها أو تهلك دونها . ويروى الرواة حالات كثيرة يرى فيها أثر الحاسدين واضحاً جليًّا ولكن الملاحظ أن قوى الجسد الشريرة إذا أطلقت من عقالها كثيراً ما تعود على الحاسدين أنفسهم كالقذائف ترتد إلى مطلقيها .

ولقد خطب الدكتور ران بجامعة كورتل فى مجمع تقدم العلوم الأمريكى بمدينة سيراكوز فقال : إنه قام بالتجارب العلمية الدقيقة فثبت له فيها أن العين البشرية إذا حدقت فى خلايا الخميرة فإن تلك الخلايا تتلف ، لأن أشعة خفية غير منظورة تنبعث منها وتؤثر فى الخلايا كما تنبعث الأشعة فوق البنفسجية من بعض المصادر وتؤثر فى النبات والإنسان والحيوان على وجه معلوم .

كما قام بعض علماء الغرب ببعض التجارب على نباتات تنمو فى أوعية ، بحيث يخصصون إناء معيناً ليحظى بعطف خاص وتمنيات طيبة من صاحبها ،

(٢٠) من مقال بعنوان (العين والحسد بقلم الاستاذ حسن عبد الوهاب – مجلة الروح مارس سنة ١٩٦٠ .

على حين يهمل الآخر. فوجد أن الإناء الأول ازدهر نباته وأينع وذبل الثانى وذوى. ولأمر ما قاله رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وابن عباس «العين حق ولو كان شيئاً سابق القدر سبقته العين».

كما روى الترمذى أنه عليه الصلاة والسلام كان يتعوذ من عين الإنسان، ولذلك قال العلامة ابن حجر: إن العين نظر باستحسان مشوب بحسد خبيث الطبع يحصل للمنظور فيه ضرر. وقال غيره من علماء الإسلام: إن الحسد جواهر لطيفة غير مرئية تنبعث من العائن فتتصل بالمعيون وتتخلل مسام جسمه فيخلق البارئ الهلاك عندها كما يخلق الهلاك عن شرب السموم.

وقد شرح ابن حجر هذه العملية بتوسع فقال: إن الله قد أجرى العادة بوجود كثير من القوى والخواص فى الأجسام والأرواح كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتشمه من الخجل، فيرى فى وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك، وكذا الأصفر عند رؤية من يخاف وكثير من الناس يسقم بمجرد النظر إليه وتضعف قواه، وكل ذلك بواسطة ما يخلق الله تعالى فى الأرواح من التأثيرات ولشدة ارتباطها بالعين نسب الفعل إلى العين وليست هى المؤثرة وإنما التأثير للروح.

وربما بدت هذه الظاهرة واضحة فى صيد القط للفأر ولو كان فى مكان بعيد أصابه الشلل ووقف مكانه لا يبرح ويلعب به، فيقذفه ويتلقفه بالأخرى دون أن يستطيع حراكا تحت تأثير مغناطيسية نظراته.

يقول ابن القيم إن العائن والحاسد يشتركان فى أن كل واحد منهما تتكيف نفسه ويتوجه نحو من يريد إيتاءه فتؤثر فى المعيون.

كما قال الشيخ الشعرانى فى الجواهر والدرر أنه سأل شيخه أو تقتل الهمة من غير إحساس؟ فقال نعم يجمع صاحب الهمة همته ويحضر نفسه على من يريد تنفيذ همته فيه على وجه الحقارة به فيقتله من شدة ازدرائه للمقتول. بل لو جمع

همته على انتقال شيء من أجرام العالم والأرواح انتقل إليه كما أراد .

وقد أثبت علم « الراديستزية » أن الأجسام السليمة ينبعث منها أشعة مستقيمة لا عوج فيها ، وأنه فى حالة اعتلال الصحة تتقوس هذه الأشعة بحيث إذا جلس صحيح البدن بجوار المريض أثرت أشعة المريض المتقوسة على الأشعة المستقيمة للسليم بحيث تحنيها وتسبب له المرض ، ولذلك ينهى هذا العلم عن جلوس السليم بجوار المريض فترة طويلة ، كذلك مجالسة الفتى للمسن ، فإن الأشعة المتقوسة الصادرة من المسن تؤثر على أشعة الفتى المستقيمة ولعل فى هذا التفسير معنى واضحا للنهى عن زواج المسن بالفتاة الصغيرة أو المسنة بالشاب الصغير ، كما يبين أيضا أسباب العدوى بالمرض أى انتقال المرض من المريض إلى السليم .

ولقد أصبح للأشعة الحيوانية أو المغناطيسية الحيوانية كما يسمونها نظريات ثبت صحتها ، وأصبح لذوى الخبرة باستعمالها أفعال تبعث على الدهشة إذ قد تعرض بعض علماء الغرب لهذه النظريات بتوسع وقالوا : إن بعض المعالجين فى الشرق « الصوفيون المسلمون » يستطيعون أن ينقلوا الأمراض إلى غيرهم وهذا يبين مدى القوى الروحية التى يملكونها . وقال هؤلاء البحاث أن هؤلاء المعالجين عند رغبتهم فى أداء هذا العمل يفرغون عقولهم تفريغاً تاماً ثم يركزونها على تصور آلام المريض ، بحيث تنتج ظروفاً مماثلة لما يشكو منه المريض نفسه ثم يسحبون المرض خلال الأشعة المنبعثة من جسم المريض حيث يوجهونها كيف شاءوا .

روى أحمد فى مسنده أن النبى ﷺ خرج ومعه نفر نحو ماء حتى إذا كانوا بشعب الحزار من الجحفة اغتسل سهل بن حنيف وكان أبيض حسن الجلد والجسم ، فنظر إليه عامر بن ربيعة فقال : ما رأيت كاليوم ، ولا جلد عذراء

فوعك سهل مكانه واشتد وعكه فأتى الرسول عليه السلام . فقال : هل تتهمون به من أحد ؟ قالوا عامر بن ربيعة فدعاه وتيقظ عليه : وقال علام يقتل أحدكم أخاه هلا إذا رأيت ما يعجبك دعوت له بالبركة .

وقال القرطبى « لو أتلف العائن شيئاً ضمنه ولو قتل فعليه الدية أو القصاص »

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم أنه ينبغى للإمام منع العائن من مداخلة الناس وأن يلزم بيته ، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذى أمر عمر بمنعه من مخالطة الناس ومن الثوم الذى منع الشارع آكله من حضور الجماعة .

ونحن[٢١] نعتقد بصحة كل ما جاء به القرآن وورد فى السنة ونترك العلم باجتهاداته ليؤكد صحة اعتقادنا به بعد ألف وأربعمائة عام من الاجتهاد الدءوب فى تفسير التنزيل الحكيم ، فإذا اتفق العلماء مع الدين أصابوا .. وإن أخطأوا فمن قصور نظرياتهم .

التنويم[٢٢]

لقد أعطى جيمس بريد اسم التنويم Hyqnosis لعملية التنويم عام ١٨٤١ مع أنه سبق فى استعمال الطريقة وفى وصفها . ومنذ إعطاء التسمية قام الكثيرون باللجوء إلى فن التنويم لأغراض علاجية وتشخيصية ومسرحية ، على أن استعمالها فى الأوساط الطبية ظل محدوداً لا ينال إلا القليل من التشجيع بسبب ما اتصل

---

(٢١) المؤلفان .

(٢٢) النفس – د / على كمال – الدار الشرقية للطباعة والنشر – بيروت ١٩٦٧ – الطبعة الأولى .

باسم التنويم المغناطيسى من صفة سحرية ، وبسبب عدم التوصل إلى تفسير علمى لمظاهر عملية التنويم .

وفى السنوات الأخيرة أجازت الهيئات الطبية المختصة فى بريطانيا إمكانية استعمال التنويم للأغراض الطبية ، وأيدت فائدة التنويم فى تشخيص وعلاج بعض الحالات المرضية . على أن الأساس العلمى للتنويم من الناحية الفيزيولوجية العصبية ما زال بعيداً عن التقرير القاطع ، وكل ما نعلمه أن عملية التنويم تتم عن طريق الإيحاء المباشر ، يقوم به الشخص الذى يوحى على الشخص الذى يوحى إليه ، ويكون هذا الأخير قابلا للتأثر بالإيحاء وفى ظروف ملائمة لعملية الإيحاء . ونتيجة هذا التأثير الإيحائى تحدث فى الشخص حالة من تصدع الوعى تشبه حالة البحران . وفى هذه الحالة ينحصر انتباه الشخص الخاضع للتنويم بالشخص الذى نومه ، ويطيع أوامره طاعة سلبية إلا فى الأمور التى تناقض مثله وضميره ، ويمكن بواسطة عملية التنويم إحداث حالات من النسيان والتذكر والشلل الحركى ، وفقدان الأحاسيس ، والنكوص أو الرجوع إلى مظاهر سلوكية وعاطفية وفكرية اتصف بها الفرد فى سنوات سابقة من حياته وطفولته .

العلاج النفسى بالإيحاء والتنويم

معظم الوسائل العلاجية من مادية وغير مادية تحمل تأثيراً إيحائياً نفسيًّا ، وهناك قابليات مختلفة لتقبل الإيحاء عند المرضى، بما فى ذلك التباين فى أسلوب الإيحاء المناسب للحالة المرضية الواحدة كما أن عملية الإيحاء بحدودها وأساليبها المختلفة تعتمد على الجو الذى يحدث فيه الإيحاء كما تعتمد على شخصية الطبيب

الذى يقوم بهذه العملية الإيحائية .

ولعملية التنويم فوائد متعددة فيما إذا طبقت بحذر وفى الحالات الملائمة لتطبيقها ، وأكثر فوائد التنويم تأثيره فى الحالات المرضية الهستيرية ، كما تأكدت فائدته فى علاج بعض الأمراض النفسية الجسمية كمرض الربو .

وقد تستعمل مواد عقاقيرية لتغيير درجة وعى المريض ولتسهيل إظهار بعض الذكريات غير الواعية أو لتشجيع المريض على البوح ببعض الأفكار أو العواطف المزعجة ، والتى لا يستطيع الإفضاء بها بصراحة وحرية فى الأحوال الاعتيادية . ومن هذه العقاقير حقن فى الدم أو بعض مواد كحولية مخدرة ، فإذا تناولها المريض حدث ما يسمى بالتنفيس لما فى نفسه من ضيق عاطفى مكبوت .

خاتمة الكتـــاب

ما هي الروح ؟[٢٣]

شيء مبهم غامض ليس له حدود . وهذا الإبهام فى طبيعة الروح والغموض الذى يحيط بها والعجز عن إدراك كنهها هو الذى أغرى الماديين فى العصور الحديثة أن يهملوها إهمالا ويسقطوها من الحساب .

إذ كل ما لا تراه الحواس — فى نظرهم — غير موجود .. والروح لا ترى بالحواس فهى إذاً شيء ليس له وجود .

ولكن **الدوس هكسلى** يرد عليهم فى هذا الأمر — برغم أنه لا يؤمن بالدين — فيذكرهم بحقيقة ينسونها وهم يجادلون : (إنه ليس لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزود بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس . وإن جهلنا بالطريقة التى يتم بها هذا الاستشفاف لا يبرر إنكارنا له .. فإنه لا يزيد على جهلنا بالطريقة التى تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر . من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة الإدراك ؟ أو التذكر ؟ وكذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف ولكنه ، برغم ذلك حقيقة علمية) .

إن الدوس هكسلى لا يسير معنا الطريق كله ولكنه يسـير نصف الطريق، فهـو يقرر أن هناك طاقة مجهولة فى الإنسان يقدر بها على الاستشفاف ويقرر كذلك أن جهلنا لكنه هذه الطاقة لا يعنى أنها غير موجودة فى الواقع . . فهى موجودة برغم هذا الجهل .. وهى حقيقة علمية .. وأهم من ذلك أنه يقرر أننا اعترفنا

---

(٢٣) منهج التربية الإسلامية — محمد قطب الطبعة الثانية — دار القلم .

من قبل بوجود طاقات بشرية أخرى برغم أننا نجهل كنهها تمام الجهل كعملية الإدراك وعملية التذكر .. وذلك نصف الطريق .. فهكسلى يقصر هذه القدرة على الاستشفاف ثم يقصرها على (بعض) الناس فقط ولا يجعلها طاقة (بشرية) أصيلة .

ولكن حين ينظر الإنسان إلى الاتجاه المادى الغارق فى المادية الذى يسيطر على تفكير الغرب ومشاعره يجد أن هذا الاعتراف من رجل لا يؤمن بالعقيدة .. يعد فى الواقع تقدماً كبيراً نحو الفهم الصحيح للإنسان الفهم الذى قررته العقيدة منذ أقدم الأزمان ..

فالروح طاقة مجهولة .. مبهمة .. غامضة .. محجوبة عن الإدراك .. ومع ذلك فهى حقيقة وإذا كنا نظن أن عملية الإدراك أو عملية التذكر عملية (محسوسة) ومن أجل ذلك نؤمن بوجودها الواقعى فنحن مخطئون فى هذا الظن فهى فى الحقيقة ليست محسوسة فى ذاتها وإنما نحن ندرك نتائجها .. ووضوح الإحساس بنتائجها هو الذى أغرانا بذلك الظن الخاطئ كما أنه هو الذى أدخل فى وهمنا أننا (نعرف) كيف يتم الإدراك وكيف يتم التذكر .. أما الحقيقة فهى أننا لا نعرف كنه هذه العملية ولا تلك ونكتفى منهما بالنتائج التى تدركها الحواس .. ولو تدبرنا الأمر لوجدنا الطاقة الروحية كذلك .. إنها مجهولة فى كنهها مبهمة غامضة محجوبة عن الإدراك ولكن نتائجها ليست مجهولة ولا محجوبة عن الإدراك ..

ونحن لو حاولنا أن نعرف عملية التذكر فلن نجد إلا لفظة واحدة نشرحها بها ، سنقول إنها عملية التذكر ولو حاولنا أن نعرف عملية الإدراك فلن نجد إلا اللفظة ذاتها أو ما يرادفها وسنقول إنها عملية الإدراك . ولكننا سنقول عن

الروح : إنها الطاقة التى يتصل بها الإنسان بالمجهول بالغيب المحجوب عن الحواس .

(الاستشفاف) عملية من عمليات الروح .

و (الحلم التنبؤى) عملية من عمليات الروح .

والتخاطر عن بعد (التليباثى) عملية من عمليات الروح . (كحادثة عمر الشهيرة مع سارية) ..

وهى كلها عمليات جليلة عظيمة باهرة معجزة .. يقف الإنسان حائراً أمامها مبهوتاً من العجب والإعجاب ولكنها مع ذلك عمليات جانبية .. إنما الوظيفة الكبرى للروح هى الاتصال بالله . كيف يتم هذا الاتصال ؟ كيف يتم التليباثى والاستشفاف التنبؤى ؟ لا ندرى . كما أننا لا ندرى كيف يتم الإدراك والتذكر ولكنه يتم على أى حال .

الروح : تلك الطاقة المجهولة التى لا نعرف كنهها ولا طريقة عملها .. هى وسيلتنا للاتصال بالله .. وهى مهتدية إلى الله بفطرتها .. إنها سن روح الله التى أودعها قبضة الطين . (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) ومن ثم فهى بذاتها تهتدى إلى خالقها وتتصل به على طريقتها .. (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) تهتدى إليه كما يهتدى كل شىء من خلق الله بعظمته دون كد ولا تعب ولا جهد فى الاهتداء .. (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) كل ما فى الأمر أن الله قد كرم هذا المخلوق البشرى : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) ومن آيات هذا التكريم أن جعل للإنسان فؤادا واعياً : (وجعل لكم

السمع والأبصار والأفئدة) فجعل عملية الهدى عملية واعية يشترك فيها الفؤاد البصير ، فتفترق بذلك عن الطاعة التى يمارسها الجماد والنبات والحيوان .

ومع ذلك فالإنسان يضل .. يضل حين تنحرف فطرته ويصيبها المرض .. يضل فلا يهتدى إلى الله ولا يصل بروحه إليه .. ولا يستمد منه .. ولا يلجأ إلى حماه ..

على أنه حتى حين يضل « حين تتغبش روحه فلا تستطيع أن تشف .. حين يغشيها ركام الشهوات فيحجب عنها النور .. حتى حينئذ تظل بقية من الفطرة — برغم ضلالها تتجه إلى خالقها .. كما تتجه العين الكليلة إلى الضوء .. لا تراه كله ولكنها لا تعمى عنه .. فيعبد الناس الله .. ويشركون به غيره من الكائنات (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) .. (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله) أو يعبدون قوة — ما يزعمون أنها الله) ولكنهم فيما عدا الشذوذ الذى لا يحب له حساب — لا ينكرون وجود خالق لهذا الكون قوى مسيطر مريد .. ومهمة العقيدة هى مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها .. مهمتها أن تساعد الفطرة فى الاهتداء إلى الله .. الاهتداء الذى هو كامن فى كيانها ولو حجبتها عنه الأمراض .. مهمتها أن تطلق الروح من إسارها .. لكى ترى الله .. والاسلام يعنى عناية خاصة بالروح .

إنها فى نظره مركز الكيان البشرى ونقطة ارتكازه .. إنها القاعدة التى يستند إليها الكيان كله ويترابط عن طريقها .. إنها المهيمن الأكبر على حياة الإنسان .. إنها الموجه إلى النور .. يكفى أنها صلة الإنسان بالله .

فالحق أن الطاقة الروحية فى الإنسان هى أكبر طاقاته وأعظمها وأشدها

اتصالا بحقائق الوجود .

فطاقة الجسم : محدودة بكيانه المادى وبما تدركه الحواس .

وطاقة العقل : أكثر طلاقة ولكنها محدودة بما يعقل .. محدودة بالزمان والمكان .. بالبدء والنهاية ومحكومة بالفناء .

ولكن طاقة الروح : وحدها – فى كيان الإنسان هى التى لا تعرف الحدود والقيود – لا تعرف الزمان والمكان . لا تعرف البدء والنهاية .. لا تعرف الفناء .. هى وحدها التى تملك الاتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل . هى وحدها التى تملك الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان .. كيف ؟ لا نعلم لكنا نحس .. نحس بإشراقة الروح الصافية التى تشمل الحياة كلها فى ومضة وتشمل الآباد والآماد ، . . نحس بسبحة الروح الطليقة التى تجوب آفاق الكون وتتصل بكل حى فيه .. والكون كما يقول العلم كله حياة .. نحس بتلك اللحظة الدقيقة العجيبة العظيمة الرائعة التى يرتعش فيها الكيان كله ويحس فى أعماقه أنه يرى الله .

وكان طبيعياً إذن أن تهتم العقائد كلها بأمر الروح .. وكان طبيعياً أيضاً أن يهتم الإسلام خاصة بهذه الطاقة .. وهو الذى جعل منهجه الاهتمام بالطاقات البشرية كلها وإعطاءها حقها من الرعاية والتوجيه .

وطريقة الإسلام فى تربية الروح هى أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله فى كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور .

والإسلام فى واقعيته الكاملة التى تحسب حساب الضعف البشرى لا يكف أبداً عن النفخ الدائم لإذكاء شعلة الروح ، لأن هذا هو الطريق الوحيد للرفعة وموازنة ما يهبط بالنفس من أثقال .. والطريق كما أسلفنا هو عقد الصلة الدائمة – عن طريق الروح – بين الله والإنسان حتى يصبح الإنسان جديراً

بعبوديته لله وحتى يكون من أصحاب النفوس المطمئنة .

(يأيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

« انتهى بحمد الله »

ويليه الكتاب الثالث

فى حقيقة النفس

obeikandl.com

obeikandl.com

رقم الإيداع	١٩٨٨ / ٢٥٧٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-٢٤٣٣-٢

١ / ٨٧ / ٣٧٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

obeikandl.com